رواية

أحمد الشطري

SHAMS TABRIZ

شمس تبريز



أحمد الشطري

شمس تبريز

رواية

شمس تبریز

الكتاب : شمس تبريز

المؤلف: احمد الشطري

الصنف: رواية

الطبعة: الأولى

سنة الطبع : 2020

ISBN: 978-9922-9118-8-5

رقم الإيداع في دار الكتب و الوثائق ببغداد (3668) لسنة 2020

تصميم الغلاف و الإخراج الداخلي : علي كاظم الشويلي

الناشر: دار الورشة الثقافية للطباعة والنشر والتوزيع



عنوان الدار : بغداد – شارع المتنبي – مجمع الميالي – الطابق الاول

الهاتف: 009647714343692 \ 07729247088

alwarsha2018@gmail.com

شمس تبريز

رواية

احمد الشطري

هبطت بي الطائرة في مطار بغداد الدولي، فوجدت اخي ينتظرني في صالة الانتظار داخل المطار، ركضت فرط لهفتي اليه، وعانقته بكل ما بي من شوق وضياع، شممت فيه رائحة اهلي، عبق مدينتي، عطر وطني، وبالأحرى لقد عانقت فيه ذاتي فلم اكن مشتتا وضائعا مثلما كنت عليه في الايام الماضية، كنت اشعر وكأني خارج كوكب الارض مع أناس من كواكب اخرى، فانا الى الان لم أصدق روايتهم رغم أن كل الدلائل تشير الى صدقها، فهل كنت خارج الزمن لسبع سنوات!؟

كيف يمكن ان اصدق ان سبع سنوات من عمري ضاعت هباء دون أن يكون لها أي اثر؟ ترى أين ذهبت؟ وكيف سقطت من مسبحة عمري دون ان اشعر بها؟ ألم تكن المسبحة بين أصابعي أعد بخرزها سنوات حياتي، وكلما انقضت سنة أسقط خرزة، فكيف سقطت سبع خرزات دون ان أشعر بها!؟ يا لها من خسارة فادحة، نعم بل هي أفدح الخسائر، فإن من يخسر مالا من الممكن أن يعوضه ذات يوم لكن من يخسر سنوات من عمره كيف سيعوضها؟ ومن لديه الاستعداد أن يخسر سبع سنوات دون أن يرى لهن أثرا في نفسه؟ ليس مهما أن يكون ذلك الاثر ناتج عن سعادة، فلا طعم للحياة ان كانت كلها سعادة، الحياة تكتمل بوجود المتناقضات معا: السعادة والحزن، الراحة والالم، المعرفة والجهل، الصدق والكذب، الاخلاص والخيانة، لا يمكن ان تكون الحياة جميلة وممتعة إن كانت بمذاق واحد، ولولا الظلام لما عرفنا النور، ولولا القبح لما عرفنا الجمال، ألم يقل الشاعر: والضد يظهر حسنه الضد؟

فكيف يمكن ان أعدَّ تلك السنوات من عمري؟ السنوات التي لم اشعر فيها لا بالسعادة ولا بالحزن، لا بالألم ولا بالراحة، سنوات بلا ذكرى وبلا أي طعم؟

في المقعد الخلفي من السيارة جلست متوجها نحو مدينتي، ومع انطلاقة السيارة انطلقت ذاكرتي في اعادة عدّ خرز المسبحة (مسبحة عمري) علها تعثر على تلك السنوات المهدورة، عادت بي الى ايام الطفولة وانا اضع قدمي لأول مرة في عتبة تلك البناية المطلة على الشارع المحاذي للنهر الذي يتوسط المدينة، لم أكن ادري ماهي هذه البناية الا بعد أن قرأت القطعة الخشبية التي تعلو واجهة البناية والتي كتب عليها (المكتبة العامة تأسست عام 1961م)، كنت حينذاك في سن الثانية عشرة من عمري، كان الباب الرئيسي مفتوحا على مصراعيه، وما ان دلفنا من الباب حتى واجهتنا حديقة يقسمها ممر بعرض مترين، تصطف على جانبيه شجيرات الورد الجوري، وقد تلألأت بين اغصانها تلك الزهور الجميلة بلونها الأحمر البراق ورائحتها الزكية، كان منظر تلك الزهور قد سحر ناظري، حتى اني لأظن إن هذه المناسبة كانت السبب الخفي والرئيس في شغفي بعطر التيروز (Tea Rose)، الذي اصبح العطر المميز والمفضل لي طيلة سنواتي الماضية، بعد مدخل البناية ثمة فناء يؤدي الى غرفتين صغيرتين، على باب احداهما قطعة حديدية كتب عليها (المدير)، وما بينهما ثمة ممر يفضى الى الفناء الخلفي للبناية، والذي اكتشفت فيما بعد أنه يفضي الى حديقة مستطيلة الشكل مليئة بالزهور، والى جانب هذا الممر كان ثمة هيكل خشبي مجوف من الأسفل، وفي منتصفه تتوزع مجرات، كل مجر كتب عليه اسم الفئة التي يرشد اليها، فمثلا ثمة مجر كتب عليه الأدب العربي، وآخر

الأدب العالمي، وآخر التاريخ، وآخر الدين، وغيرها من أصناف الكتب، وفي كل مجر كانت ثمة بطاقات تحمل اسم الكتاب ورقمه، في جانبي البناية كانت ثمة قاعتان كبيرتان كل واحدة على جانب، واحدة تضم رفوفا مليئة بالكتب مصنفة الى فئات، والقاعة الأخرى تتوسطها طاولة كبيرة تحيط بها كراس موزعة بانتظام. يبدو أن والدي كان على علاقة طيبة بمدير المكتبة، فما أن دخلنا الى غرفته حتى نهض من مكتبه واستقبلنا بابتسامة عريضة وسلام حار، مد يده الي وانحنى علي وقبل خدي قائلا:(أهلا بالورد)، اخرج من مزهرية كانت امامه وردة حمراء واعطاها لي قائلا : وردة الجوري هذه لهذا الولد الورد. ابتسمت واخذتها من يده ووضعتها على انفي واستنشقتها بقوة كمن يستنشق شعر حبيبته، احسست بانتعاشه وانا أشم تلك الرائحة الزكية. لم يكن يعنيني من الحديث الذي دار بين ابي وبين مدير المكتبة شيئا، ولكن ما بقي عالقا في ذهني هو كلام ابي الأخير عندما هم بالمغادرة وهو يخاطب ذلك الرجل قائلا: ماذا ستعطينا اليوم من غذاء؟ كان ذهني قد انصرف الى مائدة الطعام وانا اسمع كلمة (غذاء)، ولكن الذي بدد صورة المائدة التي ارتسمت في مخيلتي هو ان الرجل اصطحبنا الى تلك القاعة الكبيرة التي امتلأت جوانبها ومنتصفها برفوف محملة بآلاف الكتب، اذهلني مشهد ذلك الكم الكبير من الكتب، وفتح في ذهني سيلا من التساؤلات عما تحتويه بين طياتها، كان مشهدا ساحرا بالنسبة لي أن ارى هذا العالم المختبئ بين الأوراق وان كان المنظر خارجيا وسطحيا، ولكنه فتح في ذهني فضاء من التخيلات التي لا حصر لها.

من على احد الرفوف استل المدير كتابا مغلفا بغلاف سميك، واعطاه لأبي قائلا: اقرأ هذا. كنت اتلصص بشيء من الفضول الى ذلك الكتاب الذي امسكه ابي واضعا اياه على صدره، وممسكا يدي بيده الأخرى، خرجنا من تلك البناية بعد أن ودعنا الرجل وقدمنا له الشكر.

كان لأبي مكتبة صغيرة تضم بضعة كتب مختلفة الاحجام والمواضيع، توزعت بين الشعر والرواية والدين والتاريخ، وبعد ان وصلنا الى البيت وضع ابي الكتاب الى جانب كتبه تلك، وكانت عيناي تلاحقانه بفضول، وما أن رأيته متشاغلا ببعض شؤون البيت، حتى مددت يدي وسحبت الكتاب من مكانه، لم يكن ابي يمانع بقراءتي لكتبه بل كان يشجعني على ذلك، ولكن الى الآن لا اعرف سببا منطقيا لتخوفي من قراءة ذلك الكتاب، ربما لأنه ليس من ممتلكاته أو ربما لسبب خفي لا أعرفه، على غلاف الكتاب كتب بخط كبير (ديوان ابن الفارض)، ومن الطبيعي انني لم اسمع بهذا الاسم من قبل لا في دراستي ولا في كتب ابي، بدأت بتصفح الكتاب بعجلة لأعرف شيئا من محتواه، قرات بعض ابيات من قصيدة اعجبني مطلعها، رغم أني لم أفهم منه شيئا كان يقول فيه:

ما بين معترك الاحداق والمهجِ

أنا القتيل بلا إثم ولا حرج

ربما كان لجرس قافية الجيم القوي وقع مؤثر في سمعي، وربما هناك اسباب اخرى لا اعرفها هي ما جعلتني اعجب بهذه القصيدة وشاعرها، بل واعجب بالشعر الصوفي فيما بعد.

ـــ الـمـرة الأولـى ـــ

استمرت زياراتي للمكتبة العامة مع والدي الذي اخذ يشجعني باستعارة بعض الكتب المناسبة لعمري خاصة بعد ان نجحت بتفوق من الابتدائية الى المتوسطة.

ورحت استعير بعض الدواوين الشعرية بإرشاد واشراف مدير المكتبة. ولكن اختياراتي اصبحت مستقلة بعد ان بلغت الخامسة عشر، فانتقلت الى خانة الروايات لأتعرف على مصر وحاراتها من خلال روايات نجيب محفوظ واحسان عبد القدوس ومحمد عبد الحليم عبد الله وتعززت المعرفة والشغف بأجواء الحب في تلك الروايات من خلال متابعتي للأفلام التي كانت تعرض في ليلة الجمعة وظهيرتها من على شاشة تلفزيون العراق.

كانت تلك الافلام والروايات تملأ صدري بشحنة من العواطف والرغبات والشهوة العارمة لملامسة اجساد الفتيات وتقبيل شفاههن. ولم يكن هناك من سبيل سوى البحث عن فتاة مراهقة مثلي في حينا او الاحياء القريبة منه، ولكن المشاعر الممتزجة من الخوف والحياء كانت تسيطر علي، وتكبح جماح تلك العواطف الجياشة والشهوة الثائرة، فلا اجد سبيلا سوى الركون الى عالم الخيال الذي يتيح لي أن اخلق فتاة تشبه بوسي او نجلاء فتحي او مرفت امين، لأغمرها بسيل جارف من تلك العواطف الجامحة، والتهم بشهوة عارمة تلك الشفاه المتوردة، واحتضن ذلك الجسد البض المكتنز، مثلما يفعل حسين فهمي ونور الشريف ومحمود ياسين، كنت دونجوانا لا

يشق له غبار في أحلام اليقظة تلك، وبطلا لا يتهيب من اقتحام ومصارحة اجمل الفتيات بإعجابه، ومن ثم الاستحواذ على قلوبهن واعجباهن بلباقته وسحر كلماته.

ما زلت الى هذه اللحظة اتذكر طعم تلك اللذة العجيبة عندما اخذت حيواناتي المنوية بالتدفق بقوة وانا احتضن ذلك الجسد البض في حلم ليلة شتائية؛ تلك اللذة التي لم اشعر بمثل طعمها مرة اخرى لا في الحقيقة ولا في الحلم. فللمرة الأولى طعم لا يتكرر أبداً.

وما زلت ايضا اتذكر طعم شفاه أول فتاة حقيقية اقبلها في حياتي رغم انها لم تكن شفاه حبيبتي الاولى. ولكن ذكراها بقيت عالقة في نفسي، وكم كنت اتمنى أن أراها واقبلها مرة اخرى، لقد كانت فتاة جريئة الى حد العهر، كان جيراننا قد اعتادوا أن يرسلوا بطلبي عندما يحتاجون لشراء شيء من السوق او المحلات القريبة ان لم يكن رب البيت موجودا.

في أحد الايام فوجئت بفتاة جميلة بمثل عمري أو أصغر قليلا وهي تفتح الباب لي، وتقف منتصبة امامي بفستانها المفتوح الصدر، ونهديها البارزين، ونظراتها التي تركزت في عيني بصلف، والابتسامة ترتسم على ثغرها المتورد الشفتين، لم يكن امامي سوى ان اطرق راسي واغض بصري؛ اتقاء لذلك المنظر المفاجئ حياء واحتراما لحق الجار، ولكن نظراتها بقيت مركزة في وجهي، ولم تهتم لأطراقتي وخجلي بل دفعت بصدرها نحوي قائلة بصوت خافت: تفضل.

قلت: انا محمد .

ضحكت بمكر وهي تقرب صدرها اكثر وتقول: أهلا بك، اعرف من تكون تفضل قلت لك.

ازداد حيائي واخذ العرق يتصبب من جبيني بعد ان امتلأت انفاسي بالعطر الذي كان يفوح منها، وامتلأت عيناي بمنظر ذلك الصدر البض، وذينك النهدين المشرئبين كأنهما قطّان ابيضان يريدان ان يقفزا من مكانهما. قلت وانا امسح جبيني : انهم يطلبونني.

وبخطوة مفاجأة امسكت بيدي وسحبتها نحو خصرها وقربت فمها من اذني وهي تهمس قائلة: الم اقل لك تفضل؟

لا ادري كيف ومن أين أتتني الشجاعة والجرأة أن اطبق ذراعيَّ علي خصرها واجذبها نحوي بقوة، وألصق جسدي بذلك الجسد الغض. شعرت بقلبي يخفق بقوة وصخب، وراح الدم الممتلئ بحرارة الشهوة يتدفق في شراييني بعنف مثل سيول الحمم البركانية، عندما أحسست بذينك النهدين المنتصبين وهما يبرزان بكامل عنفوانها، حتى خيل الي انهما سيخترقان صدري مثل سهمين رغم ما فيهما من الرقة، و كم كنت اسأل نفسي وانا اتذكر تلك اللحظات كيف اجتمعت الصلابة كلها، والرقة كلها في هذين النهدين الصغيرين.

امعنت النظر في عينيها وكأني اردت أن أثأر من نظرتها تلك التي جعلتني أطأطأ رأسي حياء، فهالني منظر عينيها العسليتين وهي تطبق جفنيهما ببطيء كما يطبق النعسان جفنيه، فما كان مني الا ان اضع فمي على فمها الصغير مطبقا شفتي على شفتيها بقوة وشهوة عارمة، بقيت حادثة الباب هذه عالقة في ذاكرتي، ولم يفارق طعم نشوتها أحاسيسي التي

لم تستطع يوما أن تحصل على مثلها رغم التجارب المتعددة مع نماذج متنوعة من النساء.

ــــ فــأر وأسد ــــ

من تلك المشاهد الجميلة قفزت بي ذاكرتي الى لحظات مريرة ومرعبة عشتها ذات يوم، عندما جاء شخص وجلس الى جانبي في المقهى التي اعتدنا ان نجلس فيها عصر كل يوم انا وصديقي، لم اكن اعرفه من قبل فلم التفت اليه ولم اتحدث معه، ولكنه فاجأني بسؤاله وهو يناديني باسمي: كيف حالك محمد؟

قلت: الحمد لله.

قال: ممكن تتفضل معي؟

قلت بتعجب: أين؟

قال: السيد المدير يطلبك.

نظرت اليه باستغراب وسألته: أي مدير؟

فقال بحزم: مدير ألأمن.

نزلت هذه الكلمة اشبه بالصاعقة على رأسي. فكلمة الأمن هذه لها القدرة على اجتثاث كل جذور الأمن في نفوس العراقيين في تلك الأيام، الجمت الصدمة فمي فلم يستطع ان ينبس ببنت شفة، وسرت في جسدي رعشة خوف لم اشعر بمثلها يوما. نهض الرجل ونهضت معه.

قال لي ونحن نمشي في الطريق: لا تخف، مجرد سؤال وستعود.

قلت له: ارجو ذلك فانا لم أفعل شيئا.

وصلنا الى مقر دائرة الأمن، فأدخلني في غرفة في اول البناية كانت الغرفة شبه مظلمة او هكذا هم ارادوها ان تكون.

كنت ارتجف من الخوف ولكنني أطمئن نفسي بانهم لو كانوا يريدون سوءا بي لما أتوا بي بهذه الطريقة المسالمة، ولأوثقوا يدي وعصبوا عيني، يبدو ان كلام الرجل صحيحا، هكذا كنت اردد في نفسي محاولا تهدأتها.

ولكن محاولاتي هذه سرعان ما تبددت وازداد قلقي وأخذ قلبي يضرب مثل صوت الطبل في صدري، عندما دخل شخصان واخذا يتهامسان بصوت يعلمان جيدا اني اسمعه.

قال أحدهم للآخر: هل هذا هو؟

فرد عليه الآخر: نعم. هذا هو

قال الثاني وهما يهمان بالخروج: هذا انتهى

مرت لحظات وانا اعيش في دوامة صراع وخوف من مصير مجهول. دخل اثنان آخران. فسال أحدهم الآخر قائلا: هو هذا؟

فرد الآخر عليه: نعم ولكنه مسكين لا شيء لديه.

قال الأول: أعرف . أعرف.. انه مجرد سؤال لا أكثر.

كان لسماعي هذا الكلام وقع نزول الماء البارد على صدر الظمآن، ولكن الخوف عاد مرة اخرى بعد خرج هذان الرجلان، وعادت وساوسي، واحسست ان ما يقوم به هؤلاء ليس سوى لعبة، لتشتيت أذهان الذين يستدعونهم واتلاف اعصابهم.

مرت ساعة علي وانا في هذه الغرفة التي يزداد فيها الظلام كلما اقترب الوقت من الليل، كانت تلك الساعة أطول ساعة في حياتي.

ادخلوني على المدير الذي رحب بي بابتسامة وكأنّه يعرفني قائلا : اهلاً محمد. استرح. هل تشرب شاي؟

قلت: لا. شكرا سيدي. ولكن أريد ماء ان أمكن. اعطاني أحدهم قدح ماء. فشربته دفعة واحدة. فقد كان فمي وبلعومي متيبسين من الخوف والعطش.

قال: نعم محمد. تكلم.

قلت: عم اتكلم يا سيدي؟

قال: عن علاقتك بأسعد،

قلت: انه صديقي. نلتقي كل يوم في المقهى

قال: عن أي شيء تتحدثون؟

قلت: نحن شباب وحديثنا دائما عن الحب وعن الفن والرياضة

قال كأنما يكمل حديثي : والسياسة

قلت: نحن لا نتحدث في السياسة سيدي

قطب حاجبيه ورد علي بغضب: اياك أن تكذب يا ابن الكلب. والا قتلتك مثلما اقتل الفأر.

قلت: والله يا سيدي. لم اكذب عليك. كل حديثنا عن الحب والفن والرياضة.

قال والغضب ما زال يعلو ملامح وجهه: الا تدري بان صاحبك ينتمي الى احد الاحزاب العميلة.

قلت : والله لا ادري يا سيدي فلم يحدثني عن ذلك ابدا.

قال: حسنا. ماذا تعرف عنه وعن علاقاته؟

قلت: كل ما اعرفه قلته لك. علاقتي به. لا تتعدى الحديث عن مواضيع الشباب المعروفة.

قال: وان ظهر انك تكذب.

قلت: انا لم اكذب. واتحمل مسؤولية كلامي.

قال: نحن متأكدون أنك لم تكذب ولكن عليك أن تتعاون معنا.

قلت: طبعا سيدي

قال: اذهب الآن ولكن عليك ان تخبرنا باي معلومات تسمع بها او اي احد يتصل بك من اصحابه.

قلت: نعم. سأفعل.

ما ان خرجت من تلك الدائرة المرعبة حتى اطلقت العنان لقدمي، محاولا أن ابتعد عنها بأسرع ما يمكنني. فرحت امشي بكل سرعة ممكنة. وما أن وصلت الى البيت واستقبلتني والدتي حتى ارتميت بحضنها باكيا.

كان لقطرات الدمع تلك اثر المورفين الذي يزيح كل الالام عن الجسم. شعرت براحة واطمئنان وانا اضع رأسي في حجر أمي مثل طفل صغير. ما اعظم أحضان الأمهات فهي دائما مليئة بالحنان والطمأنينة للأبناء مهما كبروا.

بقيت كلمة فأر عالقة في ذهني كلما رأيت شرطيا أو مركز شرطة او دائرة امنية أتخيلني فأرا على مائدة قطط فابتعد عن ذلك المكان ما وسعني الابتعاد.

سيطرت علي حالة من الخوف الدائم من هذه الأماكن التي لا ترحم الفئران، حتى عندما التحقت بالخدمة العسكرية، كان وجهي يصفر وارتجف كلما مررنا بنقطة تفتيش رغم أني لم اخالف يوما ولم اترك مقر وحدتي العسكرية دون مأذونية.

كانت الحرب بيننا وبين ايران قائمة على قدم وساق، ولم اكن بعيدا عن خط المواجهة فقذائف الهاونات والمدفعية واطلاقات الدبابات كانت تمطر علينا بين فترة واخرى.

كان اشتداد القصف دائما ما ينذر بهجوم وشيك، وفي ذلك اليوم بلغ القصف ذروته بين الجانبين، وقبل ان تلوح بشائر الصباح الاولى، كان الايرانيون قد بدأوا هجومهم، ولكننا كنا على اتم الاستعداد لصدهم رغم كثرة عددهم، استمرت المعركة والقصف المتبادل واصوات الاسلحة المتوسطة والخفيفة يومين كاملين.

وكنا طيلة هذين اليومين لم يغمض لنا جفن، ومن اين يأتي الغمض و الموت يقف منتظرا فوق الساتر، حتى الماء والطعام كنا نتقوت به خوف ان ينفد او لانعدام الشهية والرغبة في الأكل.

لم اكن شجاعا في الحقيقة ولكن دافعا ما دفعني الى المخاطرة و ترك الموضع الذي كنت اتحصن به، و اركض بكل ما اوتيت من قوة لنجدة احد المقاتلين عندما رايته يسقط بالقرب من موضعي بفعل اطلاقة من احد الجنود الايرانيين، وبعد ان

افرغت مخزنا في جسد ذلك الجندي الايراني حملت صاحبي ورجعت به نحو الموضع. كان مصابا في فخذه وفي كتفه فضمدت جرحه بما توفر في جعبتي من ضماد، بعد ان فرغت من تضميده وعاد الهدوء الي، نظرت في وجهه فاكتشفت انه آمر فوجنا. كان جهاز الاتصال في الموضع المجاور لموضعي، ولكن من الصعب المجازفة مرة اخرى بالعبور اليه، وكان الوقت قد اقترب من المساء فانتظرت الى ان خيم الظلام وعبرت مسرعا نحو ذلك الموضع الذي يستتر فيه آمر فصيلنا، أخبرته بالموقف، فسارع بالاتصال بوحدة الطبابة وتم نقل الرجل الى المستشفى.

بعد ان انتهى الهجوم، وخرجنا من المعركة شبه منتصرين رغم الخسائر العديدة في الارواح والمعدات ولكن كل ذلك لا يهم في حسابات المعركة، المهم أن لا تخسر موضعك حتى لو لم يتبق منك سوى قطعة جسد بلا اطراف.

بعد اسبوع من انتهاء المعركة، تم استدعائي الى مقر اللواء وهناك علمت بأن القيادة أمرت بتكريم الجنود الذين ابدوا مواقفا متميزة في المعركة.

في مقر الفيلق اصطف مجموعة من الضباط والجنود وكنت انا من بينهم، فألقى قائد الفيلق خطبة اشاد بها بشجاعتنا وبسالتنا في الدفاع عن الوطن، وتلا احد الضباط المرسوم الجمهوري بمنحنا نوط الشجاعة تثمينا لبطولتنا.

عندما وصل الدور لي في التكريم وقدمت نفسي الى قائد الفيلق بعد الاستعداد واخذ التحية العسكرية. همس بأذنه آمر لوائنا وكان الى جانبه بكلمات لم اسمع منها شيئا. فتبسم قائد الفيلق وربت على كتفي قائلا: اهلا بالأسد الهصور. بارك الله بك.

لا أدري لماذا تذكرت وانا اسمع هذه الكلمة من فم قائد الفيلق، وهو يمد يده ليعلق نوط الشجاعة على صدري كلمة مدير الأمن الذي نعتني بالفأر. قلت في نفسي وانا اضحك بعد أن خرجنا من حفل التكريم: يبدو ان للسلطة قدرة على مسخ مواطنيها كيفما شاءت، فمرة تمسخهم فئرانا ومرة تمسخهم أسودا. ويبدو ان اصحاب السلطة لن يعترفوا في يوم من الأيام بان من يحكمونهم بشر مثلهم.

لم يتوقف عد خرزات مسبحة عمري فقد كانت تلك السنين متسلسلة تنساب عند العد بكل يسر واتقان فقد كان لها آثار تدل عليها، آثار للحزن وآثار للفرح، آثار للخوف وآثار للطمأنينة، وما دام لها أثر فهي موجودة، ولكن المشكلة فيما لا اثر يدل على وجوده.

ابتدأت رحلة معرفتي وتعلقي بالمتصوفة بديوان ابن الفارض الذي كنت اختلس القراءة فيه كلما وجدت فرصة الى ذلك عندما استعاره والدي وانا طفل، ولم تنته بذلك بل انني بادرت باستعارة الكتاب ذاته عندما اصبحت في مرحلة الاعدادية، فزاد اعجابي وتعلقي بهذا النوع من الشعر، وكنت اقرأ بشغف كلما وقع في يدي من ادب المتصوفة بل واجتهد في البحث عنه.

في التسعينات تعرفت على الحلاج والبسطامي وابن عربي والسهروردي وفي مطلع الألفين تعرفت على ابن الرومي وشمس الدين التبريزي من خلال قراءتي لسيرتهم واشعارهم وما دار بينهم وشغلتني حالة العشق الفريدة بين ابن الرومي وشمس الدين التبريزي، ذلك العشق الخارج عن المألوف والذي جعل ابن الرومي يخصص له ديوانا كاملا او اكثر، حالة الانبهار تلك والشغف التي دعت ابن جلال الدين الرومي والمقربين منه يقومون بقتل التبريزي. على اية حال فقد كان لعشقي للمتصوفة اثر بالغ في نفسي. ولكن قصة انشغالي وبحثي عن شمس الدين التبريزي وجلال الدين الرومي تختلف في تفاصيلها عن تأثري بشعر المتصوفة، فقد حصلت في احد

ايام الالفية الثانية على نسخة من كتاب باللغة الفارسية هو في الحقيقة عبارة عن مجموعة من الرباعيات، وقد كنت اجيد بعض الشيء تلك اللغة بحكم دراستي لها في الكلية ولكن معرفتي بتلك اللغة لم تكن بذلك الاتساع والتمكن، فقد انستني سنوات الحروب المتواصلة وانشغالي بالعمل الخاص في ايام الحصار للبحث عن لقمة العيش ما تعلمته في دراستي، وحتى عندما عُيّنتُ معلماً في اواخر التسعينات لم اكن امارس تعليم تلك اللغة، وانما كنت ادرس مادة التربية الفنية.

تذكرت وانا شبه مغمض العينين في المقعد الخلفي من السيارة التي اخذت تلتهم الطريق، كيف ابتدأت رحلتي مع ذلك الكتاب الذي اضطرني الى الاستعانة بالقواميس والكتب التي احتفظت بها من ايام دراستي لترجمته، وما شغلني وزاد من اهتمامي بهذا الكتاب ليس ما قراته في صفحاته الاولى التي استطعت بعد جهد مضن ترجمتها، وانما هو ذلك الحلم الذي راودني في تلك الليلة الصيفية بكل ما تعنيه كلمة الصيف، فالحر لا يطاق، والسماء صافية جدا، ومقمرة، فلم يكن امامي وانا اضطجع على فراشي فوق سطح دارنا سوى الاستمتاع بجمال منظر تلك النجوم المتلألئة المتناثرة في سطح السماء الازرق، كأنها طيور الكناري بألوانها المختلفة، قد تجمعت على اغصان شجرة غير مرئية، تهمس بزقزقتها في اذن ذلك القمر المستدير ببياضه الناصع، الذي يشبه وجه حسناء، وقد جلست مصغية لذلك الهمس بمشاعر تمزج بين السعادة، والحياء والزهو.

هكذا كنت اتخيل ذلك المنظر السماوي، وانا اتقلب فوق فراشي من شدة الحر.

ومع مرور الوقت بدأت نسمات خجولة تداعب جسدي النصف عاري ببرودة فاترة، وبدأ النعاس يتسرب الى جفني بهدوء رزين. لم اغط في نوم عميق بعد -أو هكذا شعرت – عندما اقترب ذلك الرجل المنسدل الشعر بوجهه الابيض المشرب بالحمرة، ولحيته البيضاء المنسرحة ليهمس في اذني:

- (إيهٍ يا قونية.. ما أبعد الطريق وأيسر السفر.)

انتبهت من حلمي فزعا ومشاعر التعجب، والحيرة تغمر نفسي، بينما راح سيل الأسئلة ينهمر على ذهني بشكل متسارع كأنه صيحات قطار.

لم اكن اعرف شيئا عن هذا الرجل؟ ولا عن قونية؟ فلماذا يدعوني الى السفر، وما هذا الطريق البعيد؟ وما هذا السفر اليسير ..وماذا ..ولماذا ... وما المقصود؟

لم تهدأ دوامة تلك الاسئلة الا بعد ان تعبت من التفكير العقيم، واخذ النوم طريقه بين جفني بعد ان عاد التيار الكهربائي، ونزلت من سطح الدار؛ لأكمل نومي في غرفتي في ظل نسمات الهواء المنبعثة من المبردة.

في مساء اليوم الثاني وكعادتي عدت الى قراءة الكتاب بلهفة وشغف. كنت استلذ وانتشي بما اقرأه من اشعار جلال الدين. مثلما يستلذ وينتشي شارب الخمرة، فتراني اتراقص بين فينة واخرى مثل السكران. لكن نشوتي بقراءة تلك القصائد لم تمنعني من التفكر في ما فيها من معان. وما زلت اتذكر كيف شغلت تفكيري والقتني في لجة الحيرة هذه الرباعية لجلال الدين الرومي:

سلوكُ نبيٍّ ومظهرُهُ،

أرومتنا الباطنية،

هذه الخصال لامرأة لم تزلْ تحيا بنا،

رغم أنها تختبئ مما نصيرُ اليه.

الحقيقة انني لم افهم ماذا كان يقصد في الشطرين الأخيرين، ورحت اتساءل أي امرأة هذه التي تحيا بنا، والتي تملك مظهر نبي وخصاله، وكيف لهذه المرأة ان تحيا بنا، ثم تختبأ، واين تختبأ يا ترى!؟

هل هي المرأة الحلم، ام انها المرأة التي تنتظرنا في الغيب، ام ان ما يقصده هو نفوسنا نحن؟

هذه هي متعة الشعر الحقيقية. اما ان يثير في ذهنك تساؤلات، او ان يأخذك معه الى اجواء ساحرة. هكذا كنت ارى الشعر.

تعبت من القراءة، ومن التفكير في مقاصد جلال الدين في بعض رباعياته، فليس من اليسير معرفة مقاصد كلمات الصوفيين.

غير ان ذهني وانا مضطجع على فراشي فوق سطح الدار لم ينقطع عن التفكير وكنت اردد في نفسي احدى رباعياته التي يقول فيها:

أمحُ الليلة ما هو باقٍ.

رقدنا في ليلة سالفةٍ نصيخُ الى قصتكَ الوحيدةَ.

إنْ كنتَ عاشقاً. نرقد من حولك،

نرقد من حولكَ كأننا الموتى.

تسلل النعاس الى جفني، وانا اغني بها باللغة الفارسية. ويبدو انني غفوت، فاذا بذات الرجل صاحب الشعر المنسدل ذي البشرة المشربة بالحمرة .

يقف امامي قائلا: (لو أن السامع وعى لوجد في قونية للظمآن وردا.)

انتبهت من نومي فزعا، مع أن وجه الرجل لا يثير الفزع بل ربما يبعث على الراحة، فرؤية الوجوه الحسنة عادة ما تبعث السعادة في النفس، ولكنني لا اعرف مبعث ذلك الفزع، كما إن اجواء الحلم هي الاخرى لا تدعو الى الفزع، او الخوف أيضا، ولكن يبدو أن الفزع كان نتاج جهلي بالرجل، وبقونية.

عادت الاسئلة تطرق رأسي مرة اخرى بإلحاح اكثر، فمن غير المعتاد ان يتكرر حلم معي مرتين، ولليلتين متعاقبتين، لم يكن التفكير منصبا على معرفة الشخص بل كان الهمُّ الوحيد هو معرفة تأويل الحلم، رغم اني كنت قبل ذلك اسخر ممن يبحث عن تأويل لحلم رآه ذات منام. لكن رؤية ذات الرجل في الحلم ولليلتين كان سببا في تغيير نظرتي تلك.

لم يكن احد من الذين سألتهم من اصدقائي الذين التقيهم عادة في المقهى يعرف معنى (قونية)، او سمع عنها من قبل. فكانت تفسيراتهم للاسم فيها الكثير من السخرية، والتندر، وهو ما دعاني الى ان أغضّ الطرف عما كنت أبحث عنه، وربما شعرت بالندم؛ لأني اعطيت لهذا الموضوع اهمية اكثر مما يستحق، وتعاملت معه بجدية مبالغ فيها.

عدت الى البيت، وقد طردت من مخيلتي كل تلك الاسئلة، فجلست على مكتبي، واشعلت سكارتي، واخذت نفسا عميقا، ثم نفثت الدخان الذي راح يتصاعد بدوائر منتظمة احيانا، او بفوضوية احيانا اخرى، وكأنه قطع من سحاب، وكأني اطرد من صدري هما كان جاثيا عليه، اخذت الكتاب، او قل امسكت بقنينة خمري ورحت اقرأ، او ارتشف تلك الكلمات، او ذلك الكاس؛ لأستعيد معها، او معه صفاء نفسي، وحلاوة شغفها، واحساسها بذلك الجمال المنبعث من تلك الحروف، وتلك النشوة الساحرة.

انتهيت من قراءة تلك الرباعيات الجميلة، وانتهت معها تلك الاحلام التي كانت تراودني، او هكذا خيل لي، ومرت عدة ايام، وقد نسيت، او تناسيت ذلك الحلم، ولم يعد يذكرني به سوى ذلك السؤال الساخر من احد اصدقائي، وهو يردد كلما التقينا في المقهى: ها ألم تجد (قونية)؟! - ويقصد بها ذلك الكيس الذي يعبأ به الطحين، او الرز- فيضحك الجميع بصوت عال، واضحك معهم، غير ان صورة ذلك الرجل تظل ترتسم امام عينيّ كلما يعاد ذلك السؤال الساخر.

كانت تلك الرباعيات قد فتحت شهيتي للبحث عن الادب الصوفي، فعاودت قراءة ما توفر لدي من تلك الكتب، وكأني اعيد اكتشافها من جديد، والى جانب ذلك كنت ابحث عما تيسر من هذا الادب لدى الاصدقاء، والمعارف؛ لعلّي أجد ما ليس متوفرا لدي، او مالم اطلع عليه بعد.

حتى جاء ذلك اليوم الذي حصلت فيه على كتاب باللغة الفارسية عن جلال الدين الرومي من رجل يبيع الكتب القديمة على الرصيف، وقد كانت تلك مهنة شائعة ايام الحصار خاصة في ايام الجمعة.

وصلت الى البيت، وانهيت وجبة عشائي بشكل سريع، ثم جلست الى مكتبي بانتظار كوب الشاي، وقبل ان انظر الى الكتاب ارتشفت رشفة من الكوب، واشعلت سيجارتي، وما ان وضعت الكتاب امامي، ونظرت الى عنوانه حتى اصابتني الدهشة، وبدأت اوصالي بالارتعاش، وكأنني مصاب بالحمى، واتسعت حدقتا عيني، وهما تنظران الى تلك العبارة التي كانت اشبه بالصعقة الكهربائية، فقد كان العنوان الأول مكتوبا بخط كبير: (به دنبال آفتاب)، وتعني: (البحث عن الشمس). ولم

يكن هذا ما أثار فزعي، وإنما العبارة التالية التي كتبت بخط أصغر، والتي تقول :(آز قونيه تا دمشق) وتعني (من قونية الى دمشق). فقد اعادت كلمة (قونية) الى ذهني وقائع ذلك الحلم الذي كان يراودني قبل ايام، وما رافق بحثي عن المقصود بهذه الكلمة؛ ولذا بدأت وبشغف الباحث عن المجهول بتصفح اوراق الكتاب بعناية بالغة؛ وبتركيز في كل كلمة ترد فيه.

لم يكن من السهل علي ترجمة كل ما يرد فيه من كلمات، فكنت استعين في اغلب الاحيان بالقاموس، واحيانا اهمل الكلمة التي لا اعرفها، او اجد مشقة في معرفتها، ورغم ما يكلفني ذلك من جهد، ووقت، الا ان اصراري على معرفة ما في الكتاب من معلومات، كان كافيا لحملي على تحمل ذلك الجهد المضني، خاصة بعدما عرضت امامي كلمة (قونية)، التي شكلت هاجسا لأيام عدة بعد ذلك الحلم الذي لم اجد له تأويلا.

بعد عدة ايام من انشغالي بقراءة، وترجمة هذا الكتاب تمكنت من معرفة معنى كلمة (قونية) التي كنت ابحث عنها، وكانت دهشتي كبيرة بذلك، فانا لم اسمع بهذه المدينة الواقعة في تركيا، ولم اقرا عنها من قبل، ولم اذهب الى تركيا يوما. فما الذي اراده ذلك الرجل بدعوتي اليها؟

الحقيقة انني لم اتمكن بعد من الربط بين مجريات حلمي وتلك المدينة، غير اني عرفت من خلال قراءتي للكتاب بان مولانا جلال الدين الرومي كان يسكن فيها.

وبعد ان اجهدتني القراءة صعدت الى فراشي، ورميت بجسدي المنهك عليه، واستسلمت للنوم دون ان تحلق افكاري بأجواء

بعيدة كما هو معتاد، فلم يترك التعب مجالا لذلك، ولا أدري كم مضى علي في نومي ذلك، عندما انتبهت فزعا، وانا اتلفت يمينا، ويسارا باحثا عن الرجل الذي كان يحدثني، فلم اعثر على شيء.

لقد عاد ذلك الرجل المنسدل الشعر، بوجهه الابيض المشرب بالحمرة، ووقف الى جانبي هامسا في اذني:

(لوكان لطيننا اجنحة كأرواحنا وقلوبنا

لمضت الى تبريز في هذه اللحظة).

مضت عدة دقائق، وانا افتش عنه، فلم اصدق بانه كان حلما، ولم يدر في خلدي تلك الساعة ايٌّ شيء عن تبريز سوى معرفتي بانها مدينة ايرانية.

فعدت الى فراشي، وانا اسبح في موج متلاطم من الهواجس، والتساؤلات العقيمة.

ويبدو انني غفوت بعد ان ارهقني تعب التفكير. فلم استيقظ الا على صوت زوجتي وهي تدعوني منبهة اياي بأشعة الشمس التي اخذت تغطي جسدي النصف عار. مع نزولي من سطح الدار، قفز الى ذهني سؤال تعجب عن حلم الليلة البارحة، ترى ما الذي جعل الدعوة تتحول من قونية الى تبريز!؟

هل علم بعجزي عن الذهاب الى قونية فاراد ان يسهل لي الامر او يضع لي خيارا آخر؟ ام تراها دعوة الى رحلة داخل النفس؟ ولكن ما علاقة هاتين المدينتين بالرحلة داخل النفس والبحث في خباياها!؟ اي امتحان هذا الذي وضعني به هذا الرجل؟ بل اي وساوس هذه التي سيطرت على تفكيري؟

هل اصبحت مجنونا؟ ربما . اليس احد انواع الجنون هو ان تنغمس في الحديث مع نفسك حد الصراع؟ حسنا . سأقلع عن مواصلة الاتصال به، فأمامي اشياء اهم من هذا الجنون. هكذا اصدرت قراري بلهجة الواثق وكأني أنا من يستدعيه لا هو من يفرض نفسه علي.

كانت العطلة الصيفية قد شارفت على نهايتها، في ذلك اليوم قررت ان اترك قراءة كتاب (البحث عن الشمس)، او أؤجل قراءتي له الى وقت اخر، بعدما اصابني ما اصابني من التعب، والارهاق، وانا ابحث عن معاني الكثير من الكلمات الفارسية التي اجهل معناها في اللغة العربية، وربما هو نوع من الهروب من ذلك الحلم الذي افزعني الليلة البارحة. ولكن مقطعا من احدى قصائد جلال الدين الرومي بقي يتردد في ذهني..

(والاغرب من هذا هو: انا، وانت في نفس الزاوية هنا،

في نفس الوقت في العراق، وخراسان

ان كنا هنا في هذه الارض، او كنا

في جنة الخلد، والنعيم .. انا، وانت)

خيل الي وانا اقرأ هذا المقطع الذي عرض امام ناظري، وانا اتصفح اشعار جلال الدين الرومي، انه كان يخاطبني، وانها بمثابة رسالة اخرى، ولكنها في عالم اليقظة. ولعل قراءتي للكتاب الاخير هو ما جعلني اربط بين ذلك الشخص الذي يأتيني في الحلم، وبين جلال الدين الرومي.

ـــــ خاتمة الرسائل ـــــ

انستني الحرب الجديدة التي شنتها قوات التحالف على العراق والتي ادت الى اسقاط النظام واحتلال العراق ذلك الكتاب، وبات همنا الوحيد البحث عن مستجدات الاخبار، واخذت العديد من التغيرات تتوالى في شتى المجالات، مرت تلك السنة بكل ما فيها من حوادث، ومع مطلع العام 2004 بدأ الاستقرار يعود نوعا ما الى البلد، وبدأنا العام الدراسي بكل جدية وما ان انهينا الامتحانات النهائية، وبدأت العطلة الصيفية، حتى قررت ان اعود لقراءة كتاب (البحث عن الشمس)، وبدأت رحلتي مع الكتاب مرة اخرى، وبمرور شهر اكملت الكتاب قراءة، وترجمة، وعرفت من خلاله حالة العشق الصوفي بين مولانا جلال الدين الرومي، وشمس الدين التبريزي، وما ولدت تلك العلاقة من نوازع كره، وعداء لدى حاشية جلال الدين، و مريديه ضد هذا العشق، والتعلق الكبير، بين الرجلين، ذلك العشق الذي كان يدور في فلك الوصول الى الله، او هكذا تعلمنا من ادبيات الفكر الصوفي، كان شمس الدين التبريزي بالنسبة الى جلال الدين هو الباب المؤدي الى الوصول الى حضرة المعشوق الاكبر، وابتعاده عنه يعني ابتعاد عن هذا الباب. فانغمس في حبه حتى ترك كل شيء، وهو ما دفع أولئك الحاسدين لقتل شمس، حسب ما يرويه الكتاب. وقد اثارني ما طرحته مؤلفة الكتاب من شكوك حول وجود قبر شمس الدين في مدينة قونية، وهو ما شكل باعثا قويا لهواجسي، وتساؤلاتي من جديد.

فقلت في نفسي ساخرا هل يظن الرجل اني محقق فدعاني لاكتشف له قاتل شمس الدين التبريزي مثلما يحدث في الافلام!؟ ام يظنني صحفيا من صحفيي الاثارة الذين يبحثون في ادلة قديمة ليفبركوا قصة لجريمة ما!؟

يا لها من سخرية هذه التي اوقعني بها ذلك الحلم.

في الليلة التي اتممت فيها قراءة الكتاب كنت قد بقيت الى وقت متأخر من الليل، وبلغ مني التعب مبلغه. غير ان الفرحة كانت اكبر من كل التعب، والسهر.

صعدت الى فراشي، وما ان وضعت رأسي على الوسادة، حتى بدأ النعاس يسيطر على جسدي، فوجدتني امام ذلك الرجل الذي زارني في الحلم عدة مرات. وحين حدقت بوجهه الأبيض المشرب بالحمرة شعرت بالريبة مما اوحته قسماته لي، وبحجم الغيظ الذي يحمله مني، فبادرني بصوت العاتب الحانق قائلا:

(ارسلت مئة رسالة، وحددت مئة طريق

فإما انك لا تعرف الطريق، واما انك لا تقرأ الرسالة).

قلت(وبصوت مرتجف): يا سيدي هلا اخبرتني من انت؟ وما الذي تريده مني؟

قال: لو نظرت في قلبك لعلمت من انا وماذا اريد؟ ولكن نظرك منشغل بما حولك، لا بما في داخلك.. انك تطلب الماء والنبع تحت قدميك.

قلت: فكيف انظر الى ما في قلبي؟ ومن اين لي ان اعرف النبع، والماء غير ظاهر للعين؟

قال: اتبع خطى هواجسك، وازح عن عينيك غشاوة الظمأ. ستجد النبع يفيض بالماء الزلال.

قلت: فان كان الظمأ قد تمكن مني، ولم يدع لعيني مجالا للرؤيا.

قال: لو انك تركت التفكير بالظمأ، وبحثت عن الماء لوجدته، ولكنك تفكر بالظمأ اكثر من بحثك عن الماء، وذلك ما اسدل الغشاوة على عينيك.

قلت: ان كنت تبصره فلماذا لا تدلني عليه، وتريحني؟

قال: ان حلاوة الشيء عندما تكتشفه بنفسك، لا بكشف غيرك له .

قلت : فان كنت عاجزا عن رؤيته؟

فغضب وامسك بكلتا يديه برأسي، وهزه بقوة وصرخ بي: ويحك افتح عينيك وسترى.

ففتحت عيني على اتساعهما، وجلست، وانا ارتعش، فوجدت نفسي على فراشي، ونظرت حولي فلم اجد أي احد، سوى زوجتي بجنبي تغط في نوم عميق.

نزلت من السطح وانا استعيذ بالله من الشيطان، متذكرا ارشادات والدتي - رحمها الله – كلما استيقظت من النوم بعد رؤية كابوس.

ـــ العودة الى المقهى ـــ

في اليوم الثاني، وكعادتي عصر كل يوم خرجت متوجها الى المقهى الذي نجلس فيه انا، واصدقائي، و ما هي الا دقائق حتى اجتمع الشمل، وبدأت الاحاديث، والحوارات تدور بيننا مع رشفات الشاي، ودخان السجائر، فقررت وبشيء من الجرأة ان احدثهم عن سلسلة احلامي مهيأ نفسي، لتحمل تعليقاتهم الساخرة، وآملا ان اجد من احدهم جدية في الحديث عن معاناتي مع هذا الرجل الغريب، ورسائله المتكررة، وتعمدت ان اطرح الموضوع بجدية، وقررت ان اكون صارما مع كل كلمة سخرية تصدر، وحاولت ان اركز نظراتي الجادة على صديقي الذي دائما ما يتقن استخلاص تعليقاته الهزلية المحببة من بين كلمات احاديثنا، قاصدا الايحاء له بان الموضوع لا يحتمل المزاح والهزل.

وبعد تعليقين ساخرين من صديقي، اخذ الحديث يتسم بالجدية في الطرح، فتعددت آراء اصدقائي بين من عدها نتاج انعكاس لما قرأته، وبين من تعمق في شرح الاسباب العلمية التي تصنع الاحلام، وكان رأي احدهم انها ربما تكون رسائل تدعوني الى السفر الى هاتين المدينتين وزيادة المعرفة، غير انه اكد انها رسائل العقل الباطن الذي يتوق لاكتشاف المزيد.

شكلت آراء اصدقائي على اختلافها نوعا من المهدئ لهواجسي التي تتصارع مع قناعاتي الراسخة؛ ولكنها لم تقطع دابرها.

في تلك الايام فتحت الحدود مع ايران واصبح السفر متاحا حتى دون جواز سفر، بل مجرد هوية الاحوال المدنية، وورقة تملأ

في المنافذ الحدودية، ولم يكن السفر يحتاج الى كثير من المال؛ بسبب ضعف القوة الشرائية للعملة الإيرانية، نتيجة الحصار المفروض عليها، وتحسن الاجور، والرواتب الشهرية التي نتقاضاها مقارنة بما كنا نتقاضاه ايام النظام السابق في ظل الحصار المفروض على بلدنا آنذاك، فهرع الناس وخاصة ابناء الجنوب، والوسط الى السفر لزيارة المراقد المقدسة في ايران.

ولغايات متعددة قررت السفر مع هذه الافواج الزاحفة برفقة اثنين من اخواني، كانا يرغبان بزيارة المراقد المقدسة، ومحاولة التحرر من هذا السجن، ولأول مرة في حياتنا، وكانت فرحتهما كبيرة عندما علما بقراري بالسفر معهما، فهما يعلمان بان لدي القدرة على التحدث باللغة الفارسية، وذلك سيسهل لهما من مهمة السفر، والتفاهم مع الإيرانيين، وهكذا بدأت بتهيئة لوازم السفر.

ــــ في الطريق الى ايران ــــ

في صباح اليوم الثاني انطلقت بنا السيارة باتجاه مدينة الكوت، ومن هناك توجهنا الى منفذ زرباطية الحدودي مع ايران. في المنفذ الحدودي كان الالاف من العراقيين ينتظرون لحظة اكمال اوراق دخولهم؛ ليتمكنوا من عبور الحدود. وفي ساعات الانتظار تلك كان احد اخوتي يشير الى الاماكن التي تواجد فيها ابان الحرب مع ايران، ويروي لنا كيف كانت المعارك الطاحنة تدور فيها، كان كل منا يحمل في داخله ذكريات مختلفة من سنين الحرب تلك، والكثير من المفارقات التي تبدو مثيرة للضحك بعد زوال الخطر. فالحرب جزء من الحياة، وشأنها شأن الحياة تجتمع فيها النقائض من حزن، وخوف، وسعادة، وفيها المضحك مثلما فيها المبكي.

استلمنا اوراق الاذن بالدخول وعبرنا نقطة العبور باتجاه ساحة وقوف السيارات القريبة من المعبر، وكان هناك الكثير من الحافلات المتنوعة المواصفات، والموديلات، ولم تكن ثمة اسعار محددة فكل سائق يعلن عن السعر الذي يناسبه.

ركبنا احدى الحافلات التي قاربت مقاعدها على الامتلاء رغبة في سرعة الوصول، وانطلقت بنا الحافلة نحو مدينة قم.

لم نكن نعرف المسافة بين الحدود، ومدينة قم، فسألنا احد الايرانيين، واخبرنا انها بين تسع الى عشر ساعات.

كان الطريق طويلا، ومتعبا، ولكن ما يهون من التعب هو تلك المناظر الطبيعية الجميلة التي تمر امام اعيننا مر السحاب،

فتثير في نفوسنا شيئا من المتعة والدهشة، فمثل هذه المشاهد لا نراها، ونحن نسافر بين المدن العراقية رغم قصر المسافات قياسا الى مسافة سفرتنا هذه، فالمسافر بين مدن العراق لا يرى سوى ارض جرداء، وطرق رغم انها معبدة، ولكنها مليئة بالحفر، والمطبات.

اكثر ما ازعجنا في طريق سفرنا هو ذلك التشدد في منع التدخين، حتى اننا تشاجرنا عدة مرات مع السائق، والمسافرين الايرانيين، فنحن لم نعتد على هكذا قوانين، او هكذا ثقافات.

كانت الهواجس تسير معي طوال الطريق، راكبة قطار خيالي الزاحف نحو الامل باكتشاف شيء ما؛ لإسكات تلك الاصوات التي ما فتأت تطرق رأسي بمطرقة الاسئلة الغامضة. كنت اتطلع من زجاج السيارة وكأنني ابحث عن وجهه الذي خيل الي انه سينتظرني في مكان ما، انظر واتحدث معه ها انا ذا قادم يا جلال الدين او يا شمس الدين فانا لا أعرف من انت بالضبط. هل سألتقيك هنا؟ هل ستتركني اعيش بدون ان تفسد منامي بدعواتك التي لا اعرف كنهها؟ ما الذي جعلك تختارني انا من بين كل هؤلاء الناس. هل اختيارك لي محض صدفة ام هو تخطيط رباني؟

لا ادري هل غفوت؟ ام لا عندما لاح لي ذلك الرجل ذو الوجه الابيض المشرب بالحمرة بشعره المنسدل على كتفيه وهو يدور راقصا في تلك الحقول الواسعة متنقلا في الهواء بين المروج وسفح الجبل وهو يغني:

ليلٌ مفعمٌ بكلامٍ موجعٍ،

أشرُّ كوامني عائقٌ، كلُّ شيءٍ

عليك أنْ ترتكبهُ بعشقٍ أو بدون.

هذا الليل يفنى، ومن ثمّ ما نرتكبُ بعده.

انتبهت محدقا في تلك الحقول التي تمر امامي من خلال زجاج السيارة باحثا عن ذلك الرجل الذي لا ادري اين اختفى عن ناظري في داخلي ام وراء الجبل؟ بحثت عنه دون جدوى لأعود الى تساؤلاتي التي لا تهدأ.

بعد أكثر من تسع ساعات وصلنا الى مدينة قم، وبمساعدة سائق التكسي حصلنا على محل للسكن، هو عبارة عن جزء من بيت، مزود بلوازم الطبخ، والافرشة وبأسعار مناسبة.

ـــ السفر الى تبريز ـــ

بعد ان قمنا بزيارة المراقد في قم تجولنا في اسواق المدينة، والاماكن السياحية فيها، وحدائقها، ومكتباتها، عدنا الى مكان سكننا، وكان جدول سفرتنا ان نبقى في قم ثلاثة ايام.

اتفقت مع اخوتي بان اتركهم يكملون جولاتهم وزياراتهم في قم، واتجه أنا الى مدينة تبريز لوحدي فهي لا تقع ضمن دائرة اهتماماتهم.

في اليوم التالي اخذت حقيبة صغيرة وضعت فيها بعض ملابسي، وذهبت الى ساحة وقوف السيارات، انطلقت الحافلة بنا نحو مدينة تبريز.

من خلال الخرائط عرفت ان المسافة بين قم، وتبريز تقرب من السبع مئة كم، وهذا يعني ان الرحلة ستكون طويلة، وشاقة، ولكنني عزمت على ان اتحمل كل المتاعب من اجل التعرف على المدينة، وما فيها؛ استجابة لهواجسي، وتساؤلاتي التي اثارتها تلك الاحلام.

في الحافلة جلس قربي رجل بعمر الشباب، فحاولت ان افتح معه حوارا؛ لأتعرف من خلاله على اهم معالم المدينة، واحوالها، وعن كل ما يثير اهتمام المسافر اليها، لم يكن في الحقيقة هذا مقصد حواري معه بل كانت غايتي ان احصل ولو على بصيص ضوء بشأن جلال الدين الرومي او شمس التبريزي. فابتدأت بسؤالي عن عمله فاخبرني بأنه مهندس يعمل في احد المصانع المنتشرة في هذه المدينة. وعرفته

بنفسي، فاستغرب عندما علم اني عراقي من سفري الى مدينة تبريز في الوقت الذي يتجه فيه جميع المسافرين في تلك الايام الى مدينتي قم، ومشهد، فأخبرته بانني اود ان اتعرف على هذه المدينة التي انجبت شعراء كجلال الدين الرومي، وشمس الدين التبريزي وانني ممن يهتم بالأدب والثقافة. لم احصل من حواري معه على شيء فلم يكن ذلك الشاب ممن يهتم بهذا الشأن، ولكنه نبهني الى وجود نصب تذكاري يسمى مقبرة الشعراء، يوجد تحته قبور لعدد من الشعراء.

كنت اترنم وانا ابتسم واخذ الشاب يفعل مثلما افعل بأحد المقاطع الشعرية لجلال الدين الرومي باللغة الفارسية:

ساربانا بار بگشا ز اشتران

شهر تبريز است و كوى دلبران

وعندما تعبنا من الاحاديث المتفرقة حاولنا النوم تخفيفا من تعب الطريق، وملل الجلوس الطويل.

صحوت فزعا على جلبة الاصوات، والحافلة تتجه بشكل غير مسيطر عليه خارج مسار الطريق.

عندما افقت كان حولي مجموعة من الاطباء، والممرضين، وكنت احس ببعض الآلام في مختلف انحاء جسدي، وكان اكثر الألم في رأسي، وكان ثمة جرح مغطى بقطعة من (الشاش) الطبي.

سألني الطبيب عن اسمي وسكني فأخبرته، وسالته عما حدث لي : فاخبرني انه حادث دهس، وان الشرطة ستأتي بعد قليل للتحقيق معي حول الحادث.

بعد ساعة جاء اثنان قالا انهما من الشرطة وسألاني عن اسمي، وعنوان سكني، فأخبرتهم: باسمي وانني من العراق، فطلبا اوراقي الثبوتية، فقلت: بانني لا ادري ربما فقدت في الحادث، ثم سألاني عن كيفية وقوع الحادث، فأخبرتهم: انني كنت متجها الى مدينة تبريز ويبدو ان السائق قد فقد السيطرة على السيارة فوقع الحادث وليس لي علم بالسبب فقد كنت نائما، فاخذ احدهما ينظر في وجه الآخر باستغراب، ولا اعرف ما السبب. قالا: يا مولانا ان الحادث وقع في قم وان سيارة دهستك، والسائق موقوف لدينا بانتظار اكمال التحقيق.

قلت: غير صحيح فانا كما اعلم قطعت مسافة اكثر من ستة ساعات في السيارة المتجهة الى تبريز ووقع الحادث.

يبدو ان الشرطيين لم يقتنعا بكلامي وسألا الطبيب عن مدى تحسن حالتي الصحية، فأخبرهم الطبيب: بأن حالتي جيدة ومستقرة.

فخرجا برفقة الطبيب دون ان يقتنعا بإجابتي.

بعد دقائق جاء مجموعة من الأطباء وبدأوا بإعادة فحصي، واخذوا يسألونني عن عدة امور وأخبرتهم أنني بخير ولا احس بشيء وأريد الخروج من المستشفى. فقد تركت اخوي في مدينة قم.

فطلبا مني البقاء ليوم غد بغرض المراقبة.

في اليوم التالي عاد الاطباء وسألوني مرة اخرى نفس الاسئلة وكانت اجابتي هي ذاتها. وكان من ضمن الاسئلة هو تاريخ وقوع الحادث فأخبرتهم: انه يوم الخميس 2004/9/2 وكانت

صدمتي الكبيرة عندما اخبرني الأطباء : ان اليوم هو الاحد 2011/10/2.

لم اصدق وبقيت ذلك اليوم مشتت الفكر، والأسئلة تنهمر على ذهني حتى كاد راسي ان ينفجر من الصداع.

- اذا كان الاطباء صادقين بما يدعون فأين كنت طيلة هذه الفترة ؟
- اين اخوي الان؟ وكيف تركاني؟ وماذا اخبرا زوجتي وأولادي؟
- هل ظنوا انني مت؟
- وكان السؤال المفزع . ماذا لو أن زوجتي تزوجت؟
- لا لا مستحيل . ولماذا مستحيل لقد مرت سبع سنوات ؟
- الم يحصل ذلك من قبل؟
- ولكن اولادي ليسوا صغارا
- وكذلك كانت بعض نسوة المفقودين ابان الحرب.
- لا لا ان زوجتي لا تفعلها.... اعتقد انها اعقل من ان تفعل ذلك.
- هل حزن علي اصدقائي واقاربي؟ ترى كيف كان حزنهم؟

والأسئلة تترى، ولا تتوقف. حتى خلت ان رأسي بدأ يتضخم، وكأنه يكاد ان يملأ المكان الذي ارقد فيه.

في اليوم التالي جاء المحققان. فأخبرتهم انني لا علم لي بالحادث الذي يتحدثون عنه، وانني لا اقيم دعوة على أحد، ووقعت على ذلك، وكان همي الوحيد هو الخروج من المستشفى، والعودة الى بلدي، واهلي .

أكتمل التحقيق وقرر الأطباء السماح لي بالخروج من المستشفى، بعد ان يأتي احد الموظفين من السفارة العراقية.

بعد يومين جاء احد الموظفين؛ لاصطحابي الى السفارة العراقية في طهران، وعندما اردت الخروج من المستشفى سلموني حقيبة قالوا انها لي ففتحت الحقيبة، ووجدت فيها ملابس لا اعرف عنها شيئا، ولا اعتقد انني من الممكن ان ارتدي مثلها وفيها سجل مكتوب فيه باللغة الفارسية. فأخبرتهم ان الحقيبة ليست لي ، ولكنهم اصروا بانها حقيبتي. فتذكرت الفترة التي قضيتها، وانا لا اعرف عن نفسي شيئا، فقررت ان آخذها لعلي اجد فيها ما يمكن ان يعرفني بالسبع سنوات التي مرت من حياتي دون ان اعرف عنها شيئا.

كانت لحيتي كثة، وملابسي غريبة، ولكنني لا املك النقود؛ لأشتري شيئا فطلبت من الموظف ان يسال ادارة السفارة ان كان بالإمكان اعطائي مبلغا؛ لشراء ملابس تناسبني، فوعدني الرجل بان يفعل ذلك.

وصلنا السفارة العراقية، ولم ننتظر طويلا في الاستعلامات، اتجه بي الموظف الذي كان معي الى احدى الغرف، وكان فيها ثلاث رجال احدهم يجلس خلف المكتب، وبعد الترحيب والضيافة، سألني الرجل الذي كان يجلس خلف المكتب عن اسمي، وعنوان سكني، وعما اذا كنت احمل معي اي مستمسك

تعريفي. فأخبرته باسمي، وعنوان سكني، وعن عدم وجود اي مستمسك معي.

قال: متى اتيت الى ايران؟

قلت: في 2004/8/31.

قال: هل كان معك احد؟

قلت: نعم كان معي اثنين من اخوتي.

قال: اين كنت هذه الفترة؟

قلت: لا ادري. بعد ان وصلنا الى قم يوم الاربعاء 2004/9/1 وادينا مراسيم الزيارة للعتبات المقدسة، تركت اخوي في قم، وسافرت الى مدينة تبريز، وقبل ان نصل الى تبريز فقد السائق السيطرة على الحافلة، ووقع الحادث، و يبدو انهم نقلوني الى المستشفى في قم وحين صحوت قالوا انني تعرضت الى حادث دهس في احد شوارع قم، وقيل لي اننا في عام 2011. ولا ادري كيف حدث ذلك.

قال: هل لديك حساب او اميل في الانترنيت؟

قلت نعم، واذا بحثت في الانترنيت ستجد بعض قصائدي التي نشرتها في الصحف والمواقع الالكترونية.

واعطيته اسمي الذي انشر به قصائدي، وبعد لحظات.

قال : نعم هي موجودة، هل هذه صورتك؟

قلت: نعم،

قال ضاحكاً: لم تكن ملتح

قلت بابتسامة: انا لم اعتد ان اطيل لحيتي، وهذه اللحية التي تراها هي نتاج الفترة التي لا اعرف عنها شيئاً.

قال: نحن ارسلنا بطلب اهلك، وسيتصلون بنا بعد قليل للتعرف عليك .

قلت: حسنا، ولكني بحاجة الى ملابس فهذه الملابس غريبة علي ولا تناسبني.

فتبسم قائلا: سنجلب لك ما تريده من ملابس وستذهب ان شاء الله الى اهلك بأجمل صورة.

فرددت له الابتسامة بمثلها وشكرته.

قال: ولكن سنتعبك قليلا في الانتظار ريثما يصلنا الاتصال.

قلت : لابأس سأتحمل اي تعب ما دمت سأصل الى اهلي.

بعد ساعتين من الانتظار المرير وسط دوامة الهواجس والتساؤلات العقيمة، والفرضيات المتناقضة. جاء الموظف واخبرني بانهم اتصلوا باهلي وهم ينتظرون ان اتحدث معهم، فنهضت وانا ارتجف من رأسي الى قدمي والعرق يتصبب مني وقلبي يكاد يخرج من صدري من شدة الخفقان.

طلب مني الرجل الذي يجلس خلف المكتب ان اجلس في كرسي قريب منه وادار جهاز الحاسوب باتجاهي.

نظرت فاذا وجه اخي يطل علي من شاشة ذلك الجهاز، فانهمرت عيناي بالدموع وصرخت به قائلا: ابا حسن كيف تتركني وتذهب؟!

فرايته يسقط مغشيا عليه وثمة ايدي تسنده والاصوات تتعالى صارخة : اغمي عليه ..رشوا على وجهه ماء.

ووجدتني افقد اتزاني وانهمر بالبكاء والنشيج، فالتف حولي الجالسون واخذوا يهدئونني ويصبرونني بمختلف كلمات التذكير بالله وبمشيئته.

بعد لحظات عاودنا الاتصال مرة اخرى وسألت اخي عن حاله وعن زوجتي واولادي فاخبرني بانهم بخير وينتظرون قدومي اليهم، ثم اعطاني رقم هاتف لاتصل بهم عند وصولي الى العراق، وبعد كلمات التوديع انهينا الاتصال، فالتفت الى الرجل وشكرته على جميل فعله، وطلبت منه السماح لي بالسفر الى بلدي.

فقال: ستسافر غدا ان شاء الله بعد اكمال الاجراءات القانونية واذونات السفر.

حجزت غرفة في احد فنادق طهران، وبعد ان وضعت ملابسي دخلت الحمام، ومع قطرات الماء المتساقطة على جسدي احسست بان قطعا من الهموم والاتربة تزاح عني معا، وسيل من الصور الجميلة ترتسم امام عيني لزوجتي واولادي واصدقائي ومدينتي، القيت بجسدي المنهك على الفراش، ورأسي مزدحم بضجيج تساؤلات لا تهدا، وصور لا تنقطع الى ان تسلل النوم الى جسدي خلسة من شدة التعب.

ـ الـعـودة الـى الـعـراق ـ

في صباح اليوم أقلعت الطائرة بي متوجهة الى بغداد، وكانت هذه المرة الاولى التي اركب فيها طائرة، احسست بان كل شيء في جسدي يرتعش من الخوف، لكن تلك المشاعر اخذت تتبدد مع استقرار الطائرة في الجو، لتحل محلها مشاعر الانتظار للقاء مرتقب بعائلتي، وبدأ نزيف من التساؤلات يتدفق في ذهني.

- ترى كيف سيكون وقع عودة رجل ميت الى الحياة عند الاهل والاصدقاء؟
- كيف سيكون شكل اولادي بعد مرور هذه السنوات السبع؟
- هل سأعرف صغيرتي التي تركتها، وعمرها ثلاث سنوات؟
- هل ستعرفني هي؟ ولكنني استدركت بانها من المؤكد قد شاهدت صوري، ولم يكن شكلي قد تغير كثيرا، او هكذا كنت اراه.

تساؤلات متشعبة وكثيرة، لم اخرج من دوامتها الا على صوت المضيفة، وهي تعلمنا بالاستعداد للهبوط، وتطلب منا ربط الاحزمة. وبعد فترة قصيرة هبطت الطائرة، وهبط معها قلبي، ولم استعد هدوئي الا بعد ان توقفت الطائرة، وفتحت ابوابها لنزول المسافرين.

من المطار انطلقت سيارتنا باتجاه مدينتي الحبيبة

وصلنا الى المدينة بعد رحلة استمرت ما يقرب من ثلاث ساعات كنت خلالها اعيش في دوامة ذكريات لم تنتهي الا عندما اصبحنا عند مدخل المدينة، و من خلال نافذة السيارة كنت انظر الى شوارع مدينتي، ومعالمها التي وجدتها قد تغيرت بعض الشيء عن آخر مرة كنت فيها.

كنت انظر الى وجوه ابنائها وقلبي يكاد يقفز من صدري ليقبلهم واحدا واحدا، كان قطرات من الدمع تتساقط فوق وجنتي، وانا اشم رائحة مدينتي التي احسست انها تختلف عن روائح كل مدن العالم بكل ما فيها من جمال.

اكملنا جولتنا، وتوجهنا الى البيت، وما ان وصلنا الى شارعنا حتى وجدنا الاقارب، وابناء منطقتنا، والاهل قد تجمهروا في باب الدار بانتظارنا.

لم ينقطع سيل المرحبين بعودتي الا بعد ساعة متأخرة من الليل.

وبعد ان انقطعت زيارات الناس، التف حولي ابنائي، وزوجتي، واخواني، وبين فرحة اللقاء المبللة بالدموع احتضنت اولادي واحدا واحدا، واعدت التعرف عليهم مطيلا التحديق بوجوههم؛ لتبين التغييرات الكثيرة التي طرأت عليها، فبين طفلة في سن الثالثة الى فتاة في العاشرة، وبين وجه طفولي في الثالثة عشر الى شاب في العشرين قد اكتملت رجولته، ونبت شعر شاربه، ولحيته.

تغييرات كثيرة لا تستوعبها دهشة لحظات اللقاء الاول.

قاربت الساعة الثانية بعد منتصف الليل، وانفض الجمع الا من زوجتي التي انحدرت دموعها، وهي تعانقني، وتصف لي مشاعرها، وحالهم بعد غيابي الطويل.

استمرت زيارات الاصدقاء، والاقارب لعدة ايام، ولم يكن فيها ثمة وقت فراغ لي لإعادة ترتيب اموري، والعودة الى حياتي الطبيعية وسط الكثير من التغيرات التي شملت حتى الوجوه. وكأن ثمة حاجز ما زال قائما بيني وبين معارفي.

هدأت الزيارات والأسئلة المتكررة، وبدأت الامور تأخذ وضعا طبيعيا، وانشغلت لعدة ايام في مراجعة الدوائر الرسمية لاستخراج الأوراق القانونية التي تعيدني الى الحياة رسميا، واستئناف عملي الوظيفي كمعلم من جديد.

كانت زوجتي قد احتفظت بحقيبتي التي جلبتها معي في خزانة ملابسي بعد ان افرغتها مما كان فيها الا من ذلك السجل الذي انستني اياه المشاغل الكثيرة؛ ودوامة الحياة الجديدة.

مر عام على عودتي الى بيتي، وعملي، وعادت لقاءاتي بأصدقائي القدماء، وتندرات صديقي، وهو يخاطبني ضاحكا كلما اجتمعنا في ذلك المقهى:

- **ها هل رأيت ما فعلت بك (القونية)؟ فتعلو الضحكات من الجميع.**

لم تكن تلك الحقيبة الرثة، ولا ما فيها من اشياء ذات اهمية لي، و ذات يوم وانا افتش في خانة ملابسي، واغراضي عن حاجة ما لمحت تلك الحقيبة بين تلك الاغراض، فأثار وجودها استغرابي. وسألت نفسي ضاحكا: ما الذي دعا زوجتي

للاحتفاظ بها، وهي التي اعتادت التخلص من كل شيء زائد من اغراضي واوراقي!؟

فتحت الحقيبة، فوجدت فيها سجلا متسخ الغلاف. فدعاني فضولي لتصفح اوراقه.

فتحت السجل، فوجدت في منتصف الصفحة الاولى، وبخط كبير باللغة الفارسية كلمة (يادداشت هاى من)، وتعني (مذكراتي)، وتحتها كتب(جلال الدين تبريزي).

عادت الاسئلة القديمة للظهور مرة اخرى، فقلت في نفسي لعلي اجد في هذا السجل جوابا لها.

فرحت اتصفح بشكل سريع تلك الاوراق المكتوبة باللغة الفارسية، وبخط ليس بغريب عني . فازداد فضولي لمعرفة ما فيه، وبدأت بقراءته.

(الـمـذكـرات)

1- فــي الــمـسـتـشـفـى

مرّ يومان منذ ان فتحت عيني، لأجد نفسي محاطا بمجموعة من الاطباء، والممرضين دون ان اتذكر ما حصل لي، ولا اعرف من انا، وكان احدهم، ويبدو انه الطبيب ينادي علي : اهلا حاج .. ما اسمك؟ وقد ردد سؤاله عدة مرات دون ان اتمكن من اجابته، فطلب منه طبيب اخر ان يتركني لمدة اربع وعشرين ساعة اخرى تحت المراقبة.

لم اكن اشعر بألم سوى بعض الصداع الخفيف وعدم التركيز، فقد كان ذهني مشتتا في البحث عن هويتي دون ان يعثر على جواب وبقيت الحيرة تسيطر على ذهني والسؤال الذي لا يجد جوابا: من انا؟

في فترة رقودي في المستشفى التي لا اعلم مدتها كنت اسمع كثيرا اسم جلال الدين، ولكنني لا اعرف من هو صاحب هذا الاسم.

في الغرفة كان ثمة شاب يرقد في السرير المجاور لي وبرفقته امرأة عجوز، وما ان خرج الاطباء من عندي حتى اقتربت مني امرأة مسنة كانت برفقته وبوجه مبتسم قالت: الحمد لله على سلامتك... كنت ادعو لك كثيرا ..كيف حالك .. فحمدت الله وشكرتها بكلمات تخرج متقطعة وبصعوبة بالغة.

كان لدى المرأة قطعت قماش خضراء اللون وضعتها على رقبتي قائلة: انها بركة من الامام الحسين. فكررت شكري لها

وسالتها بالإشارة والكلمات المتقطعة عن حال مريضها وعن علاقتها به. فاخبرتني انه ولدها الوحيد وقد اصيب بجلطة في الدماغ منذ ما يقرب من شهر وهو ما زال عاجزا عن الحركة، وطلبت مني ان ادعو له.

فقلت لها مواسيا: الحمد لله على كل حال، وأسأل الله ان يكتب له الشفاء، ويعيده لك سالما معافى.

في اليوم التالي حضر الكادر الطبي الذي جاءني بالأمس وبدا الطبيب بسؤالي عن ما احس به، فأجبته بصعوبة باني بخير فسألني عن اسمي فلم اجد جوابا لذلك ، فأخبرته بانني لا اعرف اسمي ولا اتذكر اي شيء، و لم تفلح محاولاته المتكررة لي بتذكر اي شيء.

كان من بين الاسئلة التي تحيرني هو احساسي بان اللغة التي اسمعها كأنها ليست لغتي ولكنني افهم بعض مفرداتها، فما هي لغتي؟ ومن اين انا؟ ومن انا؟ اسئلة لم اجد لها جوابا رغم محاولاتي المتعبة للتذكر.

كان الهدوء والسكون في الليل باعثا للتفكير و كان اسم جلال الدين اول ما يقفز الى ذهني وانا افكر باسمي المحتمل وبعد الياس والارهاق قررت ان اسمي هو (جلال الدين) .

في الصباح عاود الكادر الطبي تفقده لي واسئلته المكررة فأجبتهم: ان اسمي هو جلال الدين ، فسألني عن اسم والدي فأجبته بانني لا اعرف سوى هذا الاسم .

بعد عدة ايام لم يطرأ فيها اي تطور على حالتي الصحية سوى استعادتي للنطق بشيء من التلكؤ، فقرر الاطباء ان اخرج من المستشفى.

لم يكن قرار خروجي من المستشفى مفرحا؛ فانا لا اعرف اين سأذهب؟ وفي أي مكان سأستقر؟

ووسط حالة التيه التي كنت اصارعها، اقترحت علي العجوز التي يرقد ابنها بجواري بعد ان اخبرتها بما اعانيه، ان اذهب الى احد جوامع المدينة لعلي اجد من يوفر لي مكانا استقر به وعملا يوفر لي متطلبات الحياة.

2- فــي الــشـارع

خرجت من المستشفى وقد تبرع بعض العاملين لي ببعض المال إذ لم يكن معي اي شيء يوفر لي لقمة العيش ولو لبضعة ايام. ما ان وضعت قدمي على اول الشارع وانا انظر الى تلك المدينة الكبيرة التي بدت لي وكأنها صحراء واسعة ليس فيها اي دلائل للسائرين. احسست بالخوف من الضياع المحتمل وانا اجوب تلك الفيافي بأقدام واهنة ويد عزلاء وخُيّلَ لي ان قطعانا من الوحوش وأسرابا من الطيور الكواسر ستفتح افواهها الجائعة لالتهامي فهممت بالرجوع الى المستشفى الذي كنت احس فيه بالأمان لولا نداء رجل اربعيني كان قد اقترب مني قائلا: تكسي ..مولانا الى أي مكان تريد؟

حدقت في وجهه دون ان انبس بكلمة فلم اجد ما اجيبه به. بقي الرجل منتظرا مني جوابا وبقيت محدقا في وجهه بصمت وعندما طال صمتي ..سأل الرجل بشيء من التعجب. مولانا ما بك .. هل تريد ان اوصلك الى مكان؟ احسست بشيء من الحرج وانا احاول ان اجيب الرجل بتلكؤ: لا ادري .ثم اردفت هل لك ان تأخذني لأي مسجد فانا لا اعرف احدا .اصطحبني الى سيارته التي كان يركنها في الساحة القريبة من المستشفى وانطلق بي . قال من اي مدينة انت مولانا؟ قلت : لا ادري.استغرب الرجل من جوابي .ومع ابتسامة خفيفة قال: كيف؟

قلت – وكانت الكلمات تخرج من فمي بصعوبة- : لقد وقع لي حادث ويبدو اني فقدت ذاكرتي. قال: اذن اين ستذهب؟ قلت لقد نصحتني امرأة عجوز كان ابنها يرقد قربي بالذهاب الى

المسجد لعلي اجد من يساعدني. قال سآخذك الى امام مسجد في وسط المدينة اعرفه. قلت: شكرا لك

وصلنا المسجد، وكان وقت صلاة الظهر قد اقترب، قال السائق: لنتوضأ للصلاة اكملنا وضوءنا ودخلنا الى المصلى وبعد انتهاء الصلاة، بقي امام المسجد جالسا في مصلاه، كان امام المسجد رجلا في الخمسين من عمره، مشرق الوجه، عليه هيبة واضحة رغم ما يظهره من تواضع. توجهنا اليه انا، وسائق التكسي، وبعد ان قدمني له، اخبرته بحالي، وعرضت عليه ما معي من تقارير طبية، وسألته ان كان بالإمكان ان يساعدني في العثور على سكن بسيط استقر به، فوعدني انه سيعمل على ذلك، وعرض علي ان يستضيفني على الغداء فذهبت معه، وكان الشيخ كلما خاطبني يسبق خطابه بكلمة (مولانا) كما كان السائق يفعل ذلك، ولم انتبه لذلك ظنا مني ان هذه الكلمة متداولة في الخطاب لديهم، وبعد ان انهينا وجبة الغداء، دارت بيننا احاديث متنوعة، ومن بين تلك الاحاديث سؤاله لي عن نسبي (العلوي) ، فأخبرته انني لا أتذكر شيئا عن نسبي. وبشيء من الاستغراب سالته من اين عرف ان نسبي علوي؟

فأجابني: انك تضع هذا الوشاح الاخضر على كتفيك، وهذا يدل على انك علوي، فأخبرته عن قصة الوشاح وانني فقدت في الحادث كل شيء، ولكن الرجل استمر بمناداتي بكلمة مولانا.

وبعد ان قضينا اكثر من ساعة في الحديث، استأذن مني بالذهاب الى عائلته، وطلب مني ان ارتاح في غرفة الضيوف بضع ساعات.

قبل ان يحل وقت المغرب بساعة جاءني الشيخ والابتسامة على محياه، فاخبرني انه وجد لي مسكنا، وسنذهب الان لرؤيته، لم تكن المسافة تبعد كثيرا عن مسكن الشيخ فذهبنا سيرا على الاقدام، وصلنا الى المنطقة وكان ثمة رجل يبدو انه كان ينتظر قدومنا ، وبعد ان رحب بنا اصطحبنا الى المنزل، وكان عبارة عن شقة صغيرة مكونة من غرفة منام، وحمّام، وغرفة صغيرة للطبخ تقع فوق منزله، فسألني الشيخ ان كان هذا يفي بالغرض، فأخبرته انني لا ارجو اكثر من هذا. وقدمت له بالغ شكري وسالته عن مبلغ الايجار، فطلب مني ان لا افكر في ذلك، في الوقت الحاضر ريثما استعيد عافيتي واجد عملا.

توجهنا الى المسجد بعد ان انهينا تفقدنا للمنزل، وبعد صلاة العشاء مررنا بالسوق فاشترى لي الشيخ بعض لوازم البيت وضعنا الاغراض في سيارة استأجرها وتوجهنا الى شقتي وبعد ان انزلنا الاغراض اصطحبني الى بيته للعشاء فشكرته كثيرا لحسن تعامله وجميل افضاله. فقال: ليس لي فضل في ذلك ولم اصرف من جيبي انما من (الحقوق) واعطاني مبلغا لا باس به قائلا استعن بهذا المبلغ ريثما تتعافى.

3- فـي الـبـيـت

وصلت الى بيتي بعد ان تناولت وجبة العشاء في بيت الشيخ ، وبدأت بترتيب الاغراض التي جلبناها من السوق ووضعت فراشي في جانب من الغرفة وما ان استقر بي الحال فوق الفراش حتى بدأت دوامة الافكار تتسلل الى رأسي بتزاحم كتزاحم قطرات مطر شديد. لم يكن من السهل التخلص من دوامة تلك الافكار المدلهمة ولم يكن باستطاعتي ترتيبها فكنت وانا اصارعها كأنني الج في خربة وسط ظلام حالك لا ادري باي شيء اتعثر او باي شيء اصطدم او بأي مكان سأضع قدمي. افكار ليس لها اول وليس لها اخر. متشابكة دون ان يكون بينها اي تألف او تشابه مرة تقفز بي نحو مستقبل غامض ومرة ترجع بي نحو ماض مجهول. كنت أحس بان راسي يكبر مثلما يكبر البالون كلما نفخ فيه الهواء.

لا ادري متى وكيف استسلمت للنوم وسط ذلك الضجيج لتلك الافكار العابثة. وكنت احس بصداع قوي حين استيقظت على صوت آذان الفجر، فنهضت من فراشي وتوضأت وفرشت مصلى كان من بين الاغراض التي جلبناها وبعد ان اتممت الصلاة. أخذت اقرا في كتاب القرآن الذي اهداه لي الشيخ. مبتدأ باول سوره التي قرأتها فانطبعت بذاكرتي دون ان اعيد قراءتها. احسست وانا اقرا القرآن ان تلك الكلمات مألوفة لدي فلم يكن هناك صعوبة في فهم معانيها دون ان يتبادر الى ذهني اي سبب سوى انها قد مرت علي سابقا.

كنت اقرا وانا استمتع بتلك الكلمات فلم اترك الكتاب الا بعد ان اتممت سورة البقرة كاملة.

استمر ترددي على المسجد وصحبتي للشيخ امام المسجد واهتمامه بي طيلة شهر وقد كنت خلال هذا الشهر احصل على بعض الكتب اتسلى بها في الاوقات الطويلة التي ابقى فيها في البيت فلم يكن هناك اي عمل اقوم به سوى القراءة. والغريب اني شعرت بصعوبة في فهم بعض الكلمات التي اقرأها او اسمعها من المتحدثين معي مع اني لا اجد تلك الصعوبة في فهمي لآيات القرآن الكريم وانا اقرأ فيه وللتغلب على ذلك اشتريت قاموسا لترجمة المفردات العربية الى اللغة الفارسية معللا ذلك برغبتي بتعلم العربية. الحقيقة انني لم اعرف سببا لمعرفتي مفردات اللغة العربية التي اجدها في القرآن اكثر من معرفتي ببعض مفردات لغتي الفارسية رغم ان نطقي بلغتي الام بدا يتحسن من خلال الاحاديث الطويلة والاستماع للمتحدثين فاصبح التلكؤ يخف شيئا فشيئا، ولكنه لم ينته بشكل كامل. وكان مما يثير اعجاب الشيخ وبعض ممن يحضرون جلسات احاديثنا هو اتقاني لقراءة الآيات القرآنية من غير تلك اللكنة التي في السنتهم.

كنت احس بحرج شديد وانا اتلقى المساعدات المالية والغذائية من الشيخ وبعض الجيران، وكلما حدثت صديقي الشيخ عن ذلك ورجوته بان يساعدني في ايجاد عمل، يطلب مني التمهل ريثما اتعافى بشكل كامل ومحاولا تخفيف ما اشعر به من حرج بان ما احصل عليه هو حقوق نسبي العلوي وليس تفضلا من احد.

وذات مرة اخبرت الشيخ بأني لا امتلك اية اوراق ثبوتية وسألته عن كيفية استخراج تلك الاوراق فقام باصطحابي الى المحكمة للتبليغ عن فقداني لها كي اتمكن من استخراج ما يعوض عنها وبعد ان تم نشر اعلانا بفقداني لتلك الاوراق تم تزويدي بكتاب مؤيدا من عدة دوائر حكومية يؤيد ابلاغي عن فقدانها.

مر ثلاثة اشهر وانا على حالتي دون اي عمل سوى اشغالي لوقتي بمطالعة ما احصل عليه من كتب من مكتبة الشيخ او مما اقتنيه من المكتبات الموجودة في المدينة.

كثر الحاحي على الشيخ بضرورة الحصول على عمل، فقام الشيخ باصطحابي الى مجمع كبير لبيع مختلف انواع السلع المنزلية، وكان صاحبه رجلا مسنا يبدو انه في منتصف عقد الستينات ولكنه يتمتع بصحة جيدة وعلى وجهه تبدو علامات الورع والتقوى، فاستقبلنا بحفاوة وتقدير، واجلسنا، وبعد ان قام بضيافتنا على اكمل وجه، بادره الشيخ بالقول: حاج مرتضى ، مولانا جلال الدين،واشار بيده الي، يمر بظروف صعبة، وهو بحاجة الى عمل، فان كان لديكم عملا له فلا تقصروا وهو بضمانتي.

قال الحاج مرتضى: انت ومولانا جلال الدين محل تقديرنا، ونحن بخدمتكم. وتوجه الي بالسؤال: في اي وقت يحب مولانا ان يشرفنا بحضوره المبارك؟

قلت: غدا ان كان ليس لديكم مانع؟

قال: خير وبركة ان شاء الله.

خرجنا من المجمع بعد ان قدمنا للحاج مرتضى شكرنا وامتنانا وقد ودعنا الرجل بمثل ما استقبلنا به من حفاوة وتقدير.

قال الشيخ وهو يلمح السعادة التي ملأت قلبي وبدت تباشيرها على وجهي: الحمد لله – مولانا- يبدو انك مباركا فما ايسر ان هيا الله لنا ان نجد لك عملا والحاج مرتضى من الناس الاتقياء الطيبين.

قلت: بل البركة بكم وبجهودكم الطيبة ولولا طيب خلقكم ما كنت احصل على كل هذا، ودعوت الله ان يزيد في توفيقه.

4- فــي الــعـمـل

في صباح اليوم التالي توجهت الى العمل، وكان يوما مميزا بالنسبة لي فحصولي على سكن وعمل يعني الاستقرار، وبدء حياة جديدة بعد حالة الضياع التي كنت اعيشها، ويوفر لقمة عيش كريمة من دون منّ واحسان من احد.

ما ان وصلت حتى استقبلني الحاج مرتضى بحفاوة، وتقدير، تتناسبان مع سني ومكانتي الجليلة التي كما يبدو زرعتها هيأتي ووساطة امام المسجد في نفس الحاج مرتضى، فقرر ان يجعلني محاسبا على المبيعات.

وجمع العمال وقدمني لهم قائلا: مولانا جلال الدين سيكون محاسبا على المبيعات وهو المسؤول عن كل شيء من بعدي، فرحب العمال بي، وابدوا احترامهم، وتقديرهم لي. فشكرتهم جميعا، ووعدتهم باننا سنعمل جميعا بجد وامانة من اجل ان نحقق افضل المبيعات، وان نجعل من عملنا، وسيلة للرزق الحلال الطيب.

في باب المجمع ثمة مكتب صغير جلست خلفه، وبدأت عملي بترتيب السجلات، ووصولات البيع بعد ان قمت بجولة لمعرفة الاغراض، والسلع التي نبيعها، واسعارها.

كان المجمع عبارة عن محل كبير ذي طابقين. الطابق الاول مفتوح من الاعلى، وكان ثمة غرفة زجاجية مطلة على الاسفل يجلس فيها الحاج مرتضى قبل ان يترك العمل المحاسب السابق، ويقوم هو بدور المحاسب. كانت الاغراض مرتبة

بشكل انيق، وموزعة على اماكن للزجاجيات، والمفروشات، والسلع البلاستيكية، واواني الطبخ بمختلف انواعها كل نوع من تلك الانواع كان له جانب محدد من المجمع، وكان العمال ينتشرون كل واحد في الجانب المحدد له، وهناك عاملان يشرفان على المخزن الذي يقع في الطابق الثاني، ويقومان بسد اي نقص يحصل في المعروض من السلع، او يجهزان قوائم ما يباع جملة.

ومع وصول اول الزبائن بدأت بالممارسة الفعلية لعملي .

كان مجمعنا لا يبعد عن المسجد الذي يؤمُّ المصلين فيه صديقي الشيخ سوى مئتي متر تقريبا، كنت كلما حان وقت الصلاة اذهب الى المسجد؛ لأداء الصلاة برفقة الحاج مرتضى.

وبعد آذان المغرب بساعة ينتهى عملنا، فيعود كل واحد منا الى بيته، وفي طريق عودتي كان ثمة مكتبة كبيرة تحتوي على كتب متنوعة، فكنت كلما احتجت الى شراء كتاب ادلف اليها؛ لاختار ما يثير اهتمامي فيها.

كان العمل شاقا بعض الشيء، ويأخذ معظم وقتي، ولكني كنت اشعر بالسعادة وانا اختلط بالناس اكثر، فاكثر، واصبح لي معارف كثر، وسرعان ما اصبحت محل ثقة كبيرة لدى الحاج مرتضى صاحب المجمع، واحبني العمال، او هكذا كان يبدو، كما شعرت باحترام كبير من الزبائن الذين كانوا يترددون على المجمع سواء من الزبائن المستديمين؛ او من الزبائن الجدد، فقد كان تعاملي مع الناس يتسم بالمرح والمرونة.

كنت احصل على اجر اسبوعي لابأس به، فاستغنيت بذلك عن المساعدات المادية التي يقدمها لي صديقي الشيخ رغم انه لم

ينقطع عن عرضها علي بدواعي الحقوق غير اني كنت ارفض ذلك متعللا بان اجور عملي تكفيني وزيادة، وان هناك من يستحق تلك الحقوق اكثر مني.

5- فـي حـلـقـة الـشـيـخ الـمـازنـدرانـي

في مساء احد الايام اصطحبني صديقي امام المسجد الى حلقة الدرس عند احد الشيوخ، وكان يدعى اية الله الشيخ مرتضى المازندراني، وكان هذا شيخا جليلا كبير السن، وكان يعرف بانه العلامة العارف كونه كان يهتم بدراسة، وتدريس مادة العرفان.

جلسنا في اخر المجلس الذي كان يضم عددا يقرب من الثلاثين طالبا، وكان اغلب الحاضرين ممن يرتدون العمائم، وكنت انا، وبضعة طلاب حاسرين .

كان اسلوب الشيخ في الحديث شيقا، ويجذب المستمعين، وقد احسست بانجذاب كبير لحديثه، وعندما انتهى الشيخ من درسه بدا الحوار، وكنت اصغي لكل كلمة تقال باهتمام بالغ.

انتهى الدرس فأخذني صاحبي، وعرفني بالشيخ الذي استقبلنا بترحيب جميل، وبتواضع جم، فأحببت الرجل، وتعلقت بدرسه، وقررت ان احضر كل مساء حتى لو لم يحضر صاحبي معي، فسالته ان كان يسمح لي بالمدوامة على الحضور فرحب بذلك قائلا: ان الدرس مطروح للجميع فكيف بمن هو بمنزلتكم- وكان يقصد النسب العلوي كما يبدو- فقدمت له شكري باجلال واحترام بالغ.

كان الشيخ مرتضى المازندراني رجلا كبيرا في السن ذو لحية بيضاء منسدلة باناقة، وذا وجه مستدير وبشرة بيضاء وعلامات الوقار والتقوى والتواضع بادية عليه. كان يقدم

درسه المسائي في (البراني) - كما يسمونه- الملاصق لمنزله، وهذا(البراني) عبارة عن غرفة مستطيلة تتصل بصالة مربعة، وفي الباب الخارجي هناك مغاسل للوضوء، ومرافق صحية. لم يكن ثمة اثاث سوى بضعة فرش ارضية، ومكتبة شغلت جزء من الغرفة المستطيلة، وكان مجلس الشيخ المازندراني امام المكتبة، وامامه مكتب صغير عليه مصحف وسجل.

كانت حلقة الدرس لا تتعدى الساعتين في اكثر الاحيان ولكن ما يطرح فيها من معلومات كانت غاية في الاهمية بالنسبة لي على الاقل. وقد عرفت بعد كثرة ترددي على حلقة درس السيخ المازندراني بان تلك الحلقة مخصصة لعلوم العرافان، واحيانا لعلم المنطق، في حين كانت هناك حلقات دراسية في الصباح، والعصر لعلوم الفقه، والاصول.

كان الشيخ في معرض حديثه يتطرق احيانا الى المتصوفة، وبعض معارفهم، وطروحاتهم وخاصة ابن عربي، وطروحات الغزالي، وفي احيان اخرى يترنم بقصائد جلال الدين الرومي. كان انجذابي لدرس الشيخ المازندراني قد فتح امامي افاقا مشوقة للاستزادة والتوسع في كل ما يرد ذكره على لسانه، فأخذت اقرا للمولى محمد محسن المعروف بالفيض الكاشاني، والغزالي، وابن عربي، ولجلال الدين الرومي، والسبزواري، وابن طاووس، وغيرهم.

كانت قصائد جلال الدين الرومي لها وقع خاص في نفسي فجمعت كل ما وقعت عليه يدي من قصائده، وقد حفظت بعضها، كما اني اخذت اقرا كل ما وقعت عليه يدي من الشعر، فقرأت للخيام، وابو القاسم الفردوسي، وناصر خسرو، ونظام

الكنجوي، وسعدي الشيرازي، وحافظ الشيرازي، وغيرهم. ويبدو ان قراءتي للشعر واهتمامي به ايقظ في نفسي ملكة نظمه فبدأت انظم بعض القصائد دون ان اعلن عنها.

كان من ثمرة حضوري مجلس الشيخ المازندراني هو توسيع دائرة ثقافتي، وتنوع قراءاتي، وشعرت باني بحاجة الى تدوين ارائي حول ما قراته، او ما تلقيته في الدرس لدى الشيخ المازندراني، او ما رأيت بانه ممكن ان يضيف الى الفكر الانساني شيئا، ولو بسيطا. ولذلك قررت الشروع بتأليف كتاب اسميته (الانعتاق من عبودية الذات) تطرقت فيه الى ماهية العبودية وانواعها، واسبابها، وآثار عبودية الذات على الفرد، وخطة الثورة التحررية من عبودية الذات، وكيفية الوصول الى العبودية الحقة.

وقد خصصت ساعة واحدة من كل يوم للكتابة لكي لا افقد تواصلي مع القراءة.

بعد ان اكملت كتابي عرضته على صديقي الشيخ امام المسجد وبعض طلبة الشيخ المازندراني فاثنوا عليه وشجعوني على عرضه على استاذنا المازندراني فعرضته عليه، وبعد ان اتم قراءته اثنى عليه، ودون لي بعض الملاحظات، فأخذت بما كان جديرا منها ثم رجوته بكتابة تقديم للكتاب ففعل الرجل بكل تواضع ومحبة. ثم قدمته لإحدى دور النشر واتفقنا على طباعته.

وبعد ان طبع الكتاب وعرض في الاسواق لاقى رواجا لابأس به، فقرر الشيخ المازندراني تخصيص جلسة لمناقشة ما جاء فيه من افكار واراء وكانت معظم الآراء ايجابية، وكنت ادون

كل ما طرح من اراء وملاحظات، وانتهت حلقة المناقشة بالثناء والاشادة والتشجيع، مما دفعني للتفكير بكتابة بحث اخر في موضوع العرفان ايضا فشرعت بالكتابة واسميته (العرفان والتصوف دراسة مقارنة) تطرقت فيه الى الفرق بين العرفان والتصوف تاريخيا وموضوعيا وسلوكيا كما تطرقت في مبحث التمهيد الى جذور التصوف والعرفان في الديانات القديمة لمجتمعات مفكري هذين النهجين. فكانت تلك الآراء مثار جدل و نقاش محتدم استمر لفترة ليست بالقصيرة وربما سببت غضبا لبعض القراء ممن رأى ان فيها اشارات خفية الى تأثير الموروث الديني القديم للأقوام ذات الاصول غير العربية على صفاء العقيدة الاسلامية. ومع ان الهجمة كانت قوية الا انني لم انكر ما طرحته من اراء او ما توصل اليه القراء من تأويلات بل اعتذرت عن ذلك بان كل انسان حر في فهمه لما يقرا او لما توصلت اليه آراؤه البحثية.

بعد هذا الكتاب احسست بشيء من الجفوة من الشيخ المازندراني مما دعاني الى الانقطاع عن مجلسه والاقتصار على زيارات متباعدة اقرارا بالفضل مع ان الرجل كان يتلقاني بإظهار الاحترام والمودة.

والحقيقة ان ذلك الانقطاع سبب لي في بداية الامر الكثير من الحزن والفراغ فقد كنت احظى بعلاقات طيبة طيلة عامين من ارتيادي لذلك المجلس.

لم تكن تلك الضجة لتثنيني عن مواصلة الكتابة بل ربما كانت حافزا قويا للمواصلة فقد اصبح لي اسم متداول وسط الاوساط الدراسية والثقافية مما دعا بعض دور النشر التي تبحث عن

الربح في التسابق على عرض تبنيها لبحوثي فاتفقت مع احداها بعقد يضمن حقوقي المالية والفكرية.

وبدأت بكتابة بحثي الثالث تحت عنوان (حقيقة الدين في فهم المتبلدين)

6- العودة الى الجنة

اذا كان ابونا آدم قد اخرجه شغفه وافتتانه بالمرأة من الجنة فلماذا لا يكون ذلك الشغف والافتتان سببا في العودة اليها؟ أليست الجنة هي المكان الجميل الذي يحيط بك ويوفر لك كل اسباب الراحة والمتعة؟ وهل ثمة مكان اجمل من حضن امرأة تجتمع فيها كل مواصفات الجمال والحنان والالفة والعطاء؟ أليست يد المرأة هي الغصن الذي يتدلى منه كل ما تشتهي الانفس؟ فإذن لماذا لا تكون هي الجنة والنعيم المفقود؟ وما علينا سوى البحث عنها والعروج اليها ببراق الحب.

مر ثلاثة اعوام على عملي في المجمع، وقد اصبحت فيها الرئيس الفعلي للعمل فقد اصبح الحاج مرتضى ولفرط ثقته بي لا يخطو خطوة او يتخذ قرارا خاصا بالعمل الا بعد استشارتي واصبح في كثير من الاحيان يتأخر او لا يأتي للمجمع لعدة ايام معللا ذلك (بان المجمع في يد امينة ما دام مولانا جلال الدين موجودا).

لم اكن اكثر من النظر في وجوه المتبضعين وخاصة النساء بل كنت في كثير من الاحيان اتحدث معهن مطرقا راسي رغم ما اظهره من لطف في الحديث او المبادرة بمزحة ما ان سمح الظرف بذلك، وكان ذلك مدعاة لكثير منهن للحرص على ارتياد المجمع والتبضع منه كل ما دعت الحاجة الى ذلك بل اصبح الكثير منهم او منهن وسيلة دعائية مجانية للمجمع فازداد عدد زبائننا بشكل ملفت وهذا الامر كان سببا آخر في زيادة ثقة الحاج مرتضى بي وهو ما دعاه الى زيادة اجري الاسبوعي.

وفي احد الايام تعرفت على امرأة كانت تتردد على المجمع بين فترة واخرى، كانت المرأة في الثلاثين من عمرها، وكانت طيلة ترددها على المجمع تضع خمارا يغطي وجهها غير انها اليوم كشفت عن وجهها بحركة لا ادري هل كانت عفوية ام مقصودة، فرأيت وجها يحمل جمالا أخاذا حتى اني لم اتمكن من ابعاد نظري عنها او الاطراق براسي كما هي عادتي.

تسمرت عيناي امام مرأى ذلك الوجه الجميل، واحسست بارتعاشة في اعضاء جسمي كلها. وانثالت على مخيلتي كل خيالات الشبق والشهوة والاشتياق الى حضن المرأة الدافئ وتراكم على قلبي كل ثقل الحرمان الذي عشته منذ زمن لا اعرف مدته كنت انظر اليها منقطعا عن كل ما حولي من العالم المحسوس لأحلق معها او مع صورتها في عالم ابعد من أن تطأ ارضه قدم، او يصل اليه نظر، عالم لا تلج ابوابه سوى اجساد هلامية ولا تجوب طرقاته سوى اقدام ارهف من ان تترك اثرا على جنح فراشة. لم افق من تلك السكرة الا على همستها الرقيقة وهي تنده علي بكلمة مولانا. ارتسمت على ثغرها ابتسامة خفيفة، وهي تسالني عن قيمة ما ابتاعته من سلع، وبارتباك واضح بدأت اجمع اسعار السلع التي امامي، اخبرتها بالمبلغ فسلمتني اياه وهي ترجع الخمار على وجهها، فمددت يدي الى علبة فيها تحفية صغيرة من التحف التي نبيعها كانت بالقرب مني وقلت لها: هذه هدية مني.

قالت : شكرا لك مولانا سأحتفظ بهديتك المباركة، واخذت العلبة وقبل ان تبتعد قلت : ارجو ان لا تقطعوا زيارتكم لمجمعنا.

التفتت قائلة وهي ترفع الخمار: انني اتردد دائما على محلكم يبدو انك لم تنتبه لنا.

قلت: لم اركم كما رأيتكم اليوم.

فابتسمت وهي تقول: ارجو ان ترى خيرا.

قلت : الخير في مقدمكم ان شاء الله.

اعادت غطاء وجهها وانصرفت، فبقيت عيناي تتبعانها الى أن غابت عن ناظري .

بقيت طيلة اليومين الماضيين افكر في ذلك الوجه الجميل الذي اطل علي من وراء الحجب، فحرك في داخلي عاطفة كان يغلفها السكون طيلة الفترة الماضية، واشعل في نفسي رغبة عارمة كانت مدفونة لدفء المرأة.

تبعثر جدول اعمالي اليومية في اليومين الماضيين، وكنت اتفحص عيون الزبائن من النساء على غير عادتي علي اجدها.

وما ان بلغت الساعة العاشرة من ذلك اليوم حتى وجدتها تقف امامي مزيحة الخمار عن وجهة اجتمعا فيه الجمال والبراءة. قالت بصوت خفيض يشبه الهمس.

- صباح الخير.

فاجبت بصوت مرتجف: صباح الخير والبركة، واردفت بلهفة المستزيد كيف الحال؟

فقالت: بخير والحمد لله، كيف حالك انت مولانا.

قلت: لم أنم منذ ليلتين.

قالت ـ وقد علت ثغرها ابتسامة خفيفة وكأنها تدرك جوابي -: عسى أن يكون خيرا ،ما الذي سلب النوم منك؟

قلت- هامسا-: تأخركم في زيارتنا مولاتي.

ابتسمت بغنج وادارت وجهها متوجهة الى داخل المجمع قائلة وهي تسدل النقاب على وجهها: ارجو ان لا تسهر كثيرا.

بقيت مشدوه البال وعيني تلاحقها وهي تنتقل من مكان الى آخر كفراشة تتنقل بين ازهار حديقة غناء، جمعت بعض الأغراض واتت بها الي لدفع قيمتها فوضعتها امامي.

قلت لها وانا امعن التحديق فيها: هلا رفعت النقاب؟

قالت: كفاك تحديقا بي الناس تنظر الينا.

قلت: ومالنا والناس، وهل ترك الناس احدا وحاله.

قالت: ماذا تريد؟

قلت: اريد ان اتعرف عليكم.

قالت: وماذا تريد ان تعرف

قلت: اسمعي. لا بد انك تعرفين باني لست ممن يبحث عن اللهو. والحقيقة انك ابهرتني بما تحملين من جمال. وانا رجل وحيد ابحث عن زوجة اسكن اليها. فاخبريني عن حالك رجاء.

قالت: أنا ارملة.

قلت: الحمد لله.

قالت وابتسامة على ثغرها: الحمد لله أني ارملة!!؟

قلت : نعم، فذلك ربما يسهل الامور ان لم يكن لديك مانع.

ولك ان تسألي عني وتتعرفي علي اكثر؟

قالت: انا اعرف عنك الكثير،

قلت: اذن، هل لي ان اتعرف عليك اكثر ان لم يكن لديك مانع بالزواج مني؟

اعطتني اسمها الكامل وعنوان بيتها، وقالت: بإمكانك أن تسأل عني وإن اقتنعت فأهلا بك.

شكرتها على لطفها وجمعت مبلغ السلع التي انتقتها ووضعتها في الكيس وقلت لها هذه على حسابي، ولكنها رفضت ذلك بشدة واصرت على دفع المبلغ، ثم ودعتني وخرجت.

بقيت نظراتي تلاحقها وقلبي يكاد ان يطير فرحا، لقد مللت حياة الوحدة التي اعيشها، وسط بيت على صغره يكاد ان يصبح فضاء فارغا وموحشا امام عيني.

ورغم انشغالي بالعمل الا ان الوقت اصبحت دقائقه تمر ثقالا علي، فقد كنت اتعجل حلول صلاة الظهر لأذهب الى المسجد للقاء صديقي الشيخ امام المسجد، ومن يمكنه ان يعينني في هذا الامر غيره.

وما ان انتهت الصلاة ذهبت الى صديقي امام المسجد وسالته واللهفة ترتسم على ملامح وجهي: ان كان يعرف احدا بهذا الاسم واعطيته اسم والدها وعائلتها فقال: نعم اعرفهم جيدا

انهم عائلة طيبة. لماذا تسال عنهم؟ قلت : عندهم امرأة أرملة وأنا كما تعرف من حالي وأريد الزواج منها.

قال: خير ما اخترت. في اي يوم تريد اخبرني وسنذهب لخطبتها.

قلت: جزاك الله خيرا. سأرى الوقت المناسب لذلك.

عدت الى البيت محملا بصورتها التي لم تفارق مخيلتي، وقضيت تلك الليلة تائها في زحمة افكار مبعثرة كلما حاولت ان اجمعها تعود للتبعثر من جديد.

7- مغناطيس الكتابة والشعر

انهيت كتابي الثالث(حقيقة الدين في فهم المتبلدين) ودفعت به الى النشر.

كان الكتاب عبارة عن مناقشة عقلية ومنطقية للكثير من الاحاديث والطروحات والطقوس التي رسخت لفهم خاطئ للدين وفقا لفهمي، ولم تكن مناقشتها بعيدة عن النظرة العرفانية التي أعتقدها في السمو الروحي في السفر الى الله تعالى والوصول الى المعرفة اليقينية. ومعلقا على بعض ما جاء في كتاب صدر الدين الشيرازي(الاسفار الأربعة)، وكتاب فصوص الحكمة لابن عربي.

لقد حظي الكتاب برواج كبير وجدال واسع بين مؤيد ومعارض متزمت لما جاء فيه من افكار، وربما استكثر البعض على مثلي الجرأة في الطرح، وانا الخالي من الالقاب العلمية التي يتخيل البعض انها جواز المرور النافذ للبحث.

لم اعر كل ذلك اهتماما بل كنت مصرا على طرح افكاري، بغض النظر عما يمكن ان تخلفه من آثار على علاقاتي. ووسط تلك المعمة اصدرت مجموعتي الشعرية الاولى والتي ربما رأى فيها الكثير نقيضا لطروحاتي الفكرية والعرفانية، فهي عبارة عن قصائد غزل لا تخلو من الصور الايروتيكية التي رأى فيها البعض ترويجا للإباحية. والحقيقة ان هذا التناقض كان واقعيا في كتاباتي دون ان يظهر له اثر في حياتي الفعلية سواء الجانب العبثي و النزقي او الجانب العرفاني فانا وان كنت ملتزما دينيا لكني لست من المتبتلين او الذين يجاهدون

انفسهم بكثرة العبادة والتفرغ لها من اجل الوصول الى الصفاء الذهني للسفر في عالم الجبروت والملكوت. ولا انا من المتهتكين او الباحثين عن المتعة الجنسية. بل انا مجرد باحث وشاعر يكتب ما تلمع في ذهنه من افكار وصور شعرية جميلة.

لم يدر في ذهني ان تلك الطروحات الفكرية او القصائد الشعرية ممكن ان تعرضني الى الخطر وان تهدد حياتي، غير انني فوجئت بعد اصداري لمجموعتي الشعرية الثانية وكانت بعنوان (حفريات في جسد امرأة) وكتابي الرابع (مقتل النبي الاخير) واثناء عودتي من عملي الى البيت مساء فوجئت بمجموعة من الشباب الملثمين وقد انهالوا علي ضربا بالعصي الغليظة حتى اغمي علي فلم افق الا وانا في المستشفى ممددا على الفراش والرضوض تملأ جسدي واحدى يدي ملفوفة بجبيرة. ويبدو انهم لم يكونوا ينوون قتلي بل كانت عملية تأديبية دقيقة حتى انهم لم يصيبوا راسي باي جرح وربما كان سبب الاغماء هو ذلك الالم الذي سببه كثرة الضرب وكسر ساعدي.

8- الطرق على ابواب الجنة

استمر انقطاعي عن العمل وجلوسي في المستشفى والبيت نتيجة ما تعرضت له من ضرب مبرح ثلاثة اسابيع انقطعت فيها عن التواصل مع تلك المرأة التي فتنتني بجمالها ولم اتجرا ان اكلف احدا بالسؤال عنها، غير اني كنت متأكدا ان اخبار الحادثة قد وصلت اليها، وكنت اتساءل مع نفسي لو انها علمت بما حدث لي فلماذا لم تقم بزيارتي او لماذا لم تسال عني ولكنني سرعان ما اتدارك هذه الافكار معللا منطقيا بانها من غير الممكن ان تقوم بزيارة لرجل غريب في بيته او تسأل عنه وان سألت فهي لا يمكن ان تعرف نفسها لمن تسأله.

مرت الاسابيع الثلاث على ثقلهن ورغم اني لم اكتسب الشفاء الكامل بعد الا انني تحاملت على نفسي وقررت الذهاب الى مقر العمل زائرا لان الحاج مرتضى رفض رفضا قاطعا التحاقي بالعمل الا بعد ان اتعافى تماما مؤكدا ان اجري الاسبوعي جار حتى لو بقيت سنة كاملة. استقبلني الحاج مرتضى وعمال المجمع بالترحاب ولم يكن وقت صلاة الظهر ببعيد فذهبنا انا والحاج مرتضى الى المسجد وقد التف حولي بعض رواد المسجد للسلام علي واستنكار ما حدث. انهينا الصلاة فطلبت من صديقي امام المسجد والحاج مرتضى ان نذهب يوم غد الى بيت الحاج مصطفى لنخطب ابنته. فابدو استعدادهم وفرحهم بذلك وطلبت من الشيخ ان يبعث لهم بخبر قدومنا.

في عصر اليوم التالي ذهبنا الى بيت الحاج مصطفى فاستقبلونا بحفاوة وبعد ان تمت مراسيم الخطوبة قام الشيخ بأجراء عقد

الزواج فصدحت بعض الزغاريد من داخل البيت، واتفقنا على تحديد موعد الزواج بعد اكمال متطلباته.

في صباح هذا اليوم اتصلت بي شيرين وطلبت مني الحضور للغداء في بيتهم.

اديت صلاة الظهر في المسجد وتوجهت الى بيتهم بعد ان استأذنت من الحاج مرتضى.

اكملنا الغداء وجلسنا انا وشيرين في غرفة الاستقبال، فأخبرتني انها طلبت من المستأجر الذي يسكن في بيتها اخلاء البيت خلال فترة اسبوع وسننتقل اليه بعد الزواج. فقلت لها بجدية: كيف هذا؟ انه بيتك اتركيه على حاله، وانا سأستأجر بيتا لنا . وبعد اخذ ورد في الكلام رأيت ان استجيب لرايها.

تكررت لقاءاتي بشيرين في بيت اهلها واكتشفت فيها خصالا عديدة فبالإضافة الى ما تملكه من جمال وفير فهي امرأة متعلمة وتمتلك ثقافة لابأس بها وعفة يشهد بها الجميع كما ان حالتها وحالة عائلتها المادية جيدة جدا فهي تملك بعض العقارات في السوق ورثتها من زوجها ومبلغا جيدا من المال.

وكانت حالتها المادية الجيدة تشكل هاجس قلق لي فانا رجل لا يملك سوى ما يسد به رمقه ويقضي به بعض حوائجه. وعندما اخبرتها بهواجسي اعترضت بشدة قائلة: ان الحب اكبر من كل الحواجز وان الرجل بأخلاقه وليس بماله. كما أن عائلتها كما أخبرتني تنظر لي نظرة توقير واحترام كبير ولا يهمهم حالتي المادية.

الحقيقة ان هذا الكلام اسعدني كثيرا وزرع في نفسي الطمأنينة، فحمدت الله على ما قدره لي من امرأة عاقلة وعائلة كريمة.

بعد أن استلمت البيت من المؤجر قمت بإجراء بعض الصيانة عليه، وتجهيزه بالأثاث الجديد وبعض المستلزمات المنزلية، وقد وصلتني بعض هدايا الاصدقاء الذين اتفقوا معي على ان تكون هداياهم وفقا لما احتاجه في تجهيز بيتي.

كان البيت حديثا وواسعا بعض الشيء، فهو يحتوي على غرفتي نوم، وصالة، واستقبال، وحديقة بمساحة خمسة امتار مربعة.

جعلت احدى الغرف خاصة بي وضعت فيها مكتبا صغيرا ومكتبة صغيرة نواة لمكتبة المستقبل التي احلم أن اجمع فيها كل ما تيسر لي من كتب.

بعد ان هيئنا بيتنا للسكن، حددنا موعد العرس، واتفقنا ان نقضي فترة اسبوع بعيدا عن ضوضاء الاهل والاصدقاء فتوجهنا بسيارة صغيرة الى مدينة اصفهان، التي تبعد حوالي (600كم) عن مدينة تبريز وكنا قد حجزنا في فندق(Viana Hotel) وهو من الفنادق السياحية المعروفة في المدينة.

قضينا ست ساعات في الطريق بين تبريز واصفهان ووصلنا الى الفندق في منتصف النهار منهكين، وبعد اداء صلاتنا تناولنا وجبة الغداء، وصعدنا الى غرفتنا وسط اجواء متشابكة بين الحياء والشوق والرغبة العارمة تبادلنا أول القبلات، كان الشبق قد بلغ بي مبلغه فلم اتمالك نفسي ريثما تنهي خلع ملابسها فاعتصرتها بكل ما في من شوق ومزقت ملابسها

الداخلية وسط دهشتها وضحكتها المغلفة بالحياء؛ بيد انها ما لبثت أن بادلتني نفس تلك الرغبة العارمة بعد ان اثارت يدي مكامن الشهوة المختبئة وهي تتحسس مفاتن جسدها الغض. قضينا اكثر من ساعتين في ذلك الصراع الماجن حتى انهكنا التعب فاستسلمنا لنوم عميق لم نفق منه الا عند الساعة التاسعة مساء.

اغتسلنا من ادران تلك المعركة الماجنة، وصلينا ثم نزلنا الى الشارع ونحن نشعر بالجوع وكأننا لم ناكل منذ مدة فدخلنا في مطعم (القوس او Arc) في الحي الارميني، كانت الاجواء في هذا المطعم غاية في الجمال فكنا نستمتع برومانسية المكان ونكهة الطعام، وفيض كلمات الغزل التي تتدفق من فمي والتي تقابلها شيرين بغنج ضحكتها الساحرة، مع بعض الكلمات التي تشي بسعادة غامرة تملأ قلبها، وقد شعرت بكم الحرمان الذي كانت تعيشه وسط اجواء الترمل؛ فكنت ازيد في اظهار لهفتي، وحبي لها من خلال ما تفيض به مخيلتي من كلمات الغزل العذب، وكأنني في تلك اللحظات استرجع فترة مراهقتي، وشبابي التي لا أتذكر منها شيئا. حتى انني اشعر بالدهشة من تلك القدرة الفائقة التي تمكنني من صياغة هكذا عبارات ساحرة حولت شيرين الى حمامة تكاد ان تطير فرط سعادتها؛ او هكذا خيل الي.

أكملنا عشاءنا، وعدنا في وقت متأخر بعض الشيء الى الفندق، وتوجهنا الى غرفتنا، ونحن نملأ المصعد مرحا.

وما أن دخلنا الغرفة حتى أشبكت ذراعيها حول رقبتي، واطبقت شفتيها على شفتي، وكأنها تريد أن تلتهم تلك الكلمات

الجميلة التي داعبت أحاسيسها، ومشاعرها الانثوية التي تبتهج غريزيا عند اشعارها بالتميز.

لم يرتو شبقي الجنسي بعد، فمنذ اربع سنوات، او اكثر، او ربما طيلة حياتي لم المس امرأة. واي امرأة هذه التي تقف امامي الان مجردة من كل شيء، فهي على الرغم من بلوغها الثلاثين، او اكثر بقليل الا ان جسدها الغض ببياضه المشبع بالحمرة، وشفتيها اللتين كأنهما فصا عقيق، وذلك الغنج، والمرح الصبياني الذي اطلقت له العنان تشعراني بانها في الخامسة عشر من عمرها. ها انا ذا احتضنها بكل ما بي من شغف، وشهوة، واعتصرها حتى اشعر بطقطقة اضلاعها الرقيقة، فتهمس في اذني بأنفاس متقطعة، وابتسامة عذبة: رفقا بي ..لقد حطمت اضلاعي.

ارخي يدي واضحك: سأعصرك حتى تتداخل اضلاعي مع اضلاعك، فنصبح جسدا واحدا.

اطبقت عينيها بعد أن اجهدنا التعب، واستسلمت للنوم، وبقيت انا للحظات اتأمل ذلك الوجه الملائكي الذي غمرني بكل هذه السعادة، وهذه المتعة، واردد مع نفسي: يا ترى كيف ستكون حياتنا نحن الرجال لو لم تكن النساء معنا على هذه الارض؟ هل سيكون للسعادة مكانا؟ هل سيكون للحياة معنى؟

في صباح اليوم التالي كنا قد قررنا زيارة بعض الاماكن السياحية في المدينة وما ان خرجنا من باب الفندق حتى لفحت وجوهنا نسمات الصباح الباردة، فدلفنا في سيارة التكسي التي كانت تنتظرنا والتي استأجرها لنا صاحب الفندق لتنقلنا الى تلك الاماكن، انطلقت السيارة بنا متوجهة الى (مدرسة الحدائق

الاربعة مدرسة چهار باغ**) التي تقع على الجانب الشرقي من شارع شارباخ وهذه المدرسة قد بنيت في النصف الاول من القرن الثاني عشر هجري في زمن الشاه سلطان حسين الصفوي. تجولنا في هذه المدرسة الساحرة ببنائها وزخارفها المذهلة ونظام قبابها المدهش والنقوش وبلاط الفيروز ومدخلها المزين بالذهب والفضة بصناعة اعجازية. كنت ارى ذلك الجمال المعماري وانظر الى وجه شيرين المتلألئ وعينيها التي تتفحص النقوش فاردد مع نفسي: ياترى هل سيكون لهذا المكان هذا الجمال لو لم يلقي عليه وجه شيرين مسحة من جمالها؟ يبدو انني لم ارى جمال الاشياء الا من خلال شيرين. لقد خيل الي انني كلما نظرت الى بقعة جميلة المح وجهها يطل من خلاله فيمنحه ذلك الجمال. انهينا جولتنا رغم رغبتنا بالاستزادة من هذه المتعة الساحرة، وتوجهنا الى (قصر الجنات الثمان** كاخ هشت بهشت**) والذي يرجع تاريخه الى عام 1080 هجرية وقد بني في زمن الشاه سليمان آخر ملوك السلسلة الصفوية. دخلنا القصر وتجولنا في ارجائه وكانت القاعة المصممة على شكل قبة لازورديّةٍ جميلةٍ على قاعدةٍ ذهبيّةٍ ساطعةٍ تخلب العقول، و الجدران التي في الطابق العلوي التي تمّت زخرفتها باشكالٍ هندسيّةٍ مثيرةٍ للإعجاب. وحديقة القصر التي تحتوي انواعا فريدة من الطيور والحيوانات. كانت تلك المناظر الخلابة تجعل الناظر يحلق فيها بأجنحة الخيال الى عوالم الدهشة والسحر، فكنا انا وشيرين مثل طائرين انطلقا من قفص وراحا يجوبان في فضاء حديقة غناء حتى اننا كنا ننسى من حولنا فنلتصق ببعض فلا يفيقنا من ثملنا الا تلك الهمهمات والضحكات الفاترة ممن يقتربون منا.**

كان يوما ممتعا مطرزا بعبارات الغزل التي اهمس بها بين لحظة واخرى في اذن شيرين التي تقابها بضحكة خفيضة ونظرة اعجاب وتعجب وهي تهمس باذني: باي السحرين انشغل بسحر كلماتك ام بسحر المناظر؟

فارد عليها ضاحكا: اما انا فلا يشغلني سحر المكان عن سحر حبيبتي.

- هل تريد ان تجنني، اقسم بالله ان لم تصمت فسأحتضنك واقضم شفتيك امام الناس

تجاوز الوقت منتصف النهار فتناولنا غداءنا وعدنا الى الفندق.

كان المخطط ان نقضي فترة اسبوع في اصفهان، ولكن جمال المكان وسحر الاجواء الرومانسية التي عشناها جعلنا نطمع بالمزيد فزدناها ثلاثة ايام اخرى.

ووسط تلك الاجواء كنت كلما نظرت في وجه شيرين وهي نائمة – وغالبا ما افعل ذلك- اغبط نفسي على كل هذه السعادة والمتعة التي انا فيها، وكنت اتساءل مع نفسي ترى اي شيء فعلته في حياتي لأكافئ بكل هذه النعمة التي بين يدي. ولم يدر في بالي ان هناك سعادة اكثر مما اعيشه هذه الايام. أليست السعادة نعمة فكيف اذا كانت السعادة في ذروتها؟ نعم هكذا كنت أشعر. ام ترى ما انا فيه امتحان، ونقمة، وليس نعمة كما احسبه؟ واتذكر قول الله عز وجل:{أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ ۞ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ} ثم انفض من ذهني هذه الافكار متعوذا بالله وكأنها وسواس من وساوس الشيطان، او شطحة من شطحات المتصوفة، او هكذا كنت اردد مع نفسي للتخلص منها ثم اعود وأسأل نفسي: كيف

للمرأة ان تكون سببا في كل هذه السعادة؟ ترى هل يمكن أن يكون الرجل كذلك؟ سؤال لا يمكنني الاجابة عليه كما لا يمكنني تصديق امرأتي لو اجابت بنعم على ذلك فليس من المستبعد ان تكون اجابتها من باب المجاملة او اتماما لسقي نبة السعادة التي اعتادت ان ترعاها، أليست هي من زرعها؟ وانا الآن اقطف من ثمارها الدانية وكأني اجلس في قصر من قصور الجنة التي تتحدث عنها الكتب السماوية؟ من قال متيقنا ان انهار الخمر التي في الجنة هي مثلما يرتسم في ذهننا لمفردتي (النهر، والخمر) أليس اجمل ما في الخمر ما تخلفه من سكر؟ واذا كان السكر في خمور الدنيا محرما فالسكر في خمور الجنة حلالا، وما انا فيه من السكر المتواصل من خمرة العشق لم يقل احد بتحريمه فلم لا تكون خمرة العشق هي ذاتها خمرة الجنان بالمعنى التأويلي؟ ثم من يجزم أن الحور العين أجمل من شيرين؟ الحقيقة اني لا يمكن ان اتخيل ان ابداعا في الخلق ممكن ان يتجاوز ما وصل اليه الابداع الالاهي في خلق شيرين، بجسدها الرخامي الممدد عاريا امام ناظري الان ووجهها الذي اتسق كل شيء فيه بشكل عجيب فلا ترى ثمة زائدة او ناقصة في عين او حاجب او انف او فم او ما يغلفهما من الوان لا يمكن لرسام ان يجمع بينهما بكل هذه الدقة في النسب، من بياض ليس كالبياض وحمرة ليست كالحمرة وسواد ليس كالسواد وخضرة عينين ليست كالخضرة وشقرة شعر ليست كالشقرة، انها الوان تجاوزت كل اوصاف الالوان. فهل بعد كل هذا الجمال بعد ...؟

تساؤلات لم يضع لها حدا سوى سلطان النوم الغالب؛ بيد ان ذلك النوم - كما يخيل الي - لا يمكن ان يسرق مني صورتها

التي حرصت جيدا ان اخبأها بين جفني؛ وهما ينطبقان استسلاما لجبروت السلطان.

استيقظنا باكرا، وحزمنا حقائبنا، وكان السائق الذي اتفقنا معه ليلة امس ينتظرنا في باب الفندق في الموعد المحدد.

ركبنا السيارة، وتوجهنا عائدين الى مدينتنا تبريز، وكم كان الطريق مزدحما بتلك الصور الجميلة التي تتقافز امام ناظري لتلك الايام الممتعة، وكأنها تعرض من جهاز (الداتا شو). وصلنا الى البيت مساء، وكان جمع من اهل العروس، والاصدقاء بانتظارنا، وبعد كلمات التهنئة، والترحيب تناولنا وجبة العشاء التي اعدت لنا، ثم اخذت احاديث السمر، والطرائف تتوالى من الاصدقاء، والضحكات تعلو صانعة اجواء من الفرح والسرور على المجلس الذي استمر لمدة ساعتين بعدها تفرق الجمع، وخلدنا للراحة فقد كنا منهكين من السفر الطويل.

9- الـحـيـاة فــي نـعـيـم الـجـنـة

قضينا الايام الماضية في ترتيب بيتنا، والاستمتاع بحياتنا الجديدة، وقد شرعت في ترتيب مكتبتي، فاستأجرت احد النجارين لعمل الرفوف، وقمت بترتيب كتبي فيها، واضفت لها كتبا اخرى قمت بشرائها حديثا.

وبعد عدة ايام عدت الى مواصلة عملي في المجمع، فكنت اذهب صباحا لأعود في المساء منهكا محملا بمستلزمات البيت، وكانت شيرين تتلقاني بابتسامتها الدافئة لتزيح عني كل ذلك التعب، واتلقاها بعبارات الاشتياق لأنفض عنها غبار الوحدة التي تقضيها في البيت طيلة النهار، وكنت بعد ان نقضي ساعة من المرح، والمزاح، استأذنها بالدخول الى غرفة مكتبتي، او صومعتي كما اطلقت عليها، لأقضي فيها مدة ساعة، او ساعتين في القراءة والكتابة، ثم اعود الى شيرين لأجدها وقد تزينت بأبهى زينة رغم اني كثيرا ما اهمس لها: يخيل الي ان مواد الزينة التي اوجدها الله على الارض قد استقاها من الوان وجهك لتحسن بها نساء الارض وجوههن. فتضحك. قائلة: يا رجل لو ان احدا سمعك وانت تقول هذا لقال عنك انك مشرك.

فارد عليها: ذلك انهم لا يرون جمال الخالق وقدرته كما اراه.. فلا اوضح من الضوء دليلا على الشمس، ولا اصدق من الثمرة دليلا على النبتة. لو لم يكن الخالق جميلا لما خلق جمالا بهذا الشكل.

فلا تملك الا ان تبتسم غنجا، وهي تلصق جسدها الغض بجسدي، وتمسك براسي، وهي تضع شفتيها على شفتي. ثم تهمس بتنهد: ما أسعدني بك.

لم تكن تلك السويعات التي اقضيها مع شيرين كافية لإرواء وجدي، وعطشي لها، ولا عطشها لي، مما حدا بي الى التخلي شيئا، فشيئا عن الاعتزال في صومعتي، والتفرغ لقضاء اكبر قدر ممكن من الوقت معها.

والحقيقة ان ما دعاني الى ذلك هو اني شعرت ان لا جدوى من تلك العزلة، فقد كنت اصارع تشوقي اليها، وانا منشغل بالقراءة، او محاولة الكتابة، وقد رأيت اني لم اتمكن من كتابة صفحة واحدة، او اخرج بفكرة ما، وكنت اذا امسكت بالكتاب تقفز صورتها من بين الاسطر دون ان افقه شيئا مما اقرأ، وكنت اصبر نفسي على انها حالة ربما تزول مع تقادم الايام، ولكني اكتشفت بان تلك المحاولات مجرد عبث لا طائل منه، فرأيت أنّ تركها، والانغماس في حضن المعشوق اولى.

ربما هجري لصومعتي افرح شيرين، ولكنها اعترضت على ذلك ظنا منها، إن ذلك من اجل ارضائها، وتخفيفا من وحدتها، ولم تكن تدرك ان شوقي لها، وشغفي بها باتا يشغلاني عن كل شيء، فلم اعد ارى الاشياء كما كنت اراها من قبل. لقد اصبح للأشياء معنى واحدا: هو انها وسيلة للبقاء ما استطعت في احضان تلك الجنة الفاتنة، فهل انشغل بما يمكن ان يبعدني عنها للحظات؟ وهبني فعلت فهل انا قادر على ذلك؟ لقد بت أرى نفسي منقادا لإرادة القلب العظمى، وسلطان الحب المتجبر، ولا سلطة للعقل الا بما ينسجم مع تلك الارادة، وذلك السلطان.

حتى (ملاك) الشعر - والذي يسميه الشعراء تخرصا وجهلا (شيطان)- اصبح لا يأتيني الا وانا في حضرتها، فتتنزل كلماته على لساني بأبهى صورة، واتم سبك، واغزر معنى، وكيف لا، وهو يستلهم جمال صوره من صورتها، وقوة معانيه من اعصار الشوق الذي يضرب كل شيء في جسدي؛ ليبعثره بين يديها التي تتقن لملمته، واعادته الى ما كان عليه.

كانت الايام تسرع بخطاها دون ان تشعرنا بذلك، وكأنها تريد أن توصلنا الى موعد، او محطة ما، اما نحن فلم نكن متعجلين بالوصول الى اي موعد، او محطة اخرى، ما نحن فيه هو اجمل موعد، وافضل محطة يمكن ان ينزل فيها المسافر.

بعد سنة على زواجنا اخبرتني شيرين بانها ربما لاحظت شيئا من علامات الحمل، فسارعنا الى الطبيبة المختصة، وبعد اجراء الفحص والتحليل اكدت لنا ظنون شيرين. كانت سعادة شيرين كبيرة. حتى اني عندما اخبرتها ان الوقت مبكرا للحمل. ابدت عتبها قائلة: كيف تقول ذلك يا حبيبي الا ترى سعادتي، لقد كنت اخشى ان احرم من الانجاب مثل اخي.

فأجبتها ضاحكا: وهل تعتقدين ان عدم الانجاب وراثي. كيف انجباك امك، وابوك اذن!؟

بعد مرور خمسة اشهر على الحمل اصبحت شيرين تعاني من بعض الآلام، مما اضطرني الى ترك العمل في المجمع، والتفرغ لها، والاعتماد في معيشتنا على ما نحصل عليه من بدلات ايجار حوانيت ورثتها عن زوجها السابق، وما كنت أدخره من اجور عملي.

لم تكن شيرين وحدها التي تتألم بل كان المها يسري في كل عضو من اعضاء جسدي؛ وكأننا نعيش في جسد واحد.

لم يعد يشغلني شيء سوى توفير كل سبل الراحة لشيرين، فصرت اتولى تنظيف البيت، وغسل الملابس، واعداد الطعام. رغم محاولات شيرين المتكررة بمساعدتي في ذلك الا اني كنت ارفض رفضا قاطعا ان تمس اي شيء، وكنت ادعوها للجلوس على كرسي في المطبخ ان كان عملي فيه، او في الصالة ان كان عملي فيها، كنت اتنقل بها اينما كان عملي؛ لكي لا احرم عيني من النظر اليها، والتمتع بجمالها الساحر. وكنت اتألم كثيرا، بل وابكي عندما ارى دمعة ما تفر من عينيها، رغم انها تحاول كثيرا اخفائها، وعندما اسألها عن سبب تلك الدموع، تجيبني بانها دموع السعادة التي تحس بها، وهي تلمس مدى اهتمامي بها، ورعايتي لها، وحناني عليها، فأجيبها: انت واهمة يا حبيبتي ان ما افعله هو لإسعادي، وليس لإسعادك. لو تدركين حجم انانيتي.. يا حبيبتي ان البسمة التي ترتسم على شفتيك، ترتسم قبل ذلك على جدران قلبي، وبقائك بكامل عافيتك، واشراقتك، انما هو لإمتاع ناظري، وهما يتجولان بمرح الاطفال في ربوع هذا الوجه الملائكي. فتبتسم بعيون يتخللها الحزن.

كان لابد للهواجس ان تجد لها موضعا في نفسي، فالابتسامات الحزينة، وقطرات الدموع المتسربة بسرية تامة، او تلك التي تظهر بشكل واضح، وهي ترسم خطا منحدرا على خديها اثناء النوم. لا يمكن ان تمر دون ان تثير في النفس ما يعكر صفوها ويحرك هواجسها.

ولكن الهواجس هذه لأجل ماذا؟ فهي ليست اول امرأة تشعر بآلام الحمل. وقد كانت الطبيبة المختصة تؤكد لي في كل مرة، وهي تبتسم ان كل النساء تشعر بآلام الحمل، فما بالك بامرأة تحمل أول مرة؟ كما ان الحمل الاول في هذا السن له خصوصياته ايضا. كانت هذه التأكيدات تخفف من هواجسي بعض الشيء.

وفي احيان كثيرة اعلل حزنها بانها ربما تفتقد امها التي توفيت قبل ان تقترن بزوجها السابق، فكل النساء الحوامل في اوقات العسر يحتجن الى رعاية الأم مهما كبرن. ولكنني لا أجرأ ان اتحدث معها في هذا الشأن، لئلا اشرع بابا كان مواربا، فاكتفي بذلك لتخفيف هواجسي.

مع مرور الايام بدأت آلام الحمل تخف، وبدأت الابتسامة المشرقة تعود الى وجه حبيبتي، واختفت خيوط الدموع الليلية، واختفت معها هواجسي وانقباض قلبي الذي يزداد كلما لمحت مسحة حزن على وجهها، وعادت السعادة تغمر بيتنا، بعد ان هجرت ارجاءه طيلة الايام الماضية. وهل يمكن للسعادة ان يكون لها حضورا في نفسي، وانا المح ذلك الحزن الذي يعلو وجه حبيبتي؟ هل يمكن لها ان تتسلل الى قلبي دون ان تمر بقلبها؟ كيف يمكن لمياه العيون ان تصل الى البحر دون ان تغمر الانهار بأمواجها؟ لقد ايقنت، وانا اعيش محنة تلك الايام ان كل شيء في حياتي اصبح يمر من خلال شيرين ليصل الي، فما لم يكن مغمسا برائحتها لا يمكنه ان يترك اثرا على نفسي، ومن اين له ان يترك اثرا، وهو لا يمكنه الوصول اليها؟ اصبحت شيرين محور كل شيء، و القطب الاوحد الذي تدور حوله كل الاحداث التي تمر بي. لم اكن غافلا عن هذه الحقيقة منذ ان اصبحت شيرين ملاذي من تلك الوحدة الموحشة؛ بل ان

هذه الحقيقة تجلت لناظري بمعناها اليقيني، وانا اتنقل بين اجواء السعادة، والحزن، والسعادة مرة اخرى على هودج تلك الايام التي مرت بي.

لقد بلغ حمل شيرين الشهر التاسع، وماهي الا ايام حتى تضع مولودها الذي انتظرناه بلهفة، وشوق، ولعلها كانت اكثر مني تشوقا، ولهفة له. فما كان لشيء ان يوازي شيرين في مكانتها في نفسي، بل ما كان لنفسي ان توازي شيرين في مكانتها فيها، لقد استحوذت شيرين على كل شيء فيّ. حتى خيل الي ان قلبي لا يمكن له ان ينبض مالم تأذن له هي بذلك. فكيف لطفل ان يوازيها، او يزاحمها على مكانتها، او يشغل حيزا مما هي تستحوذ عليه؟ ولولا ان فيه شيئا منها. ولولا ان وضعه سيخفف عنها ثقل حمله؛ لما همني مجيأه من عدمه. بل لكنت اكثر راحة بال في عدم حضوره؛ لئلا يزاحمني على قلبها، ويقتطع من حصتي فيها. لا ادري هل هذا الشعور هو نوع من الغيرة من طفل لم يفتح عينيه على اشراقة وجهها بعد؟ امر مضحك حقا، ولكنها الحقيقة التي كانت تعتلج في صدري، دون أن تأخذ حضها من البوح، والاعلان.

انه سري الذي اكتمه حتى عن نفسي، ولكنه يتسرب اليها رغما عني مهما قاومت، ومهما عنفتها باستهزاء، وسخرية. هل ثمة اب يغار من مزاحمة ابنه له على مكانة في قلب والدته؟ اي سخافة هذه؟ واي مهزلة؟ ما بال هذه الوساوس السخيفة تتسلل الى نفسي دون ان تجد لها رادعا من عقلي؟ ولكن هل ثمة دخل لعقلي في حبي لشيرين!؟ لقد اختلفت موازين الاشياء عندي، فما لم يكن لشيرين نصيب فيه، او هيمنة عليه هو خارج دائرة اهتمامي، بل خارج دائرة حياتي.

لقد اصبحت مثل ذلك الدرويش الذي يدور في تلك الحلقة الموصلة الى الصفاء الروحي المهيأ للعروج الاسمى الى حضرت المعشوق.

نعم اصبحت حياتي كلها تدور في رقصة صفاء العروج لحضرتها.

10- محنة آدم

كان صباح هذا اليوم جميلا، وهادئا، وكانت النسمات الباردة المنعشة تمر على وجهي برقة، وانا اقطع الشارع متجها الى السوق؛ لشراء بعض لوازم البيت، لم استغرق وقتا طويلا في التسوق فقد كنت في عجلة من امري؛ لئلا اترك شيرين وقتا طويلا بمفردها في البيت، خوفا من ان يداهما الطلق، وانا في الخارج، وما ان فتحت الباب الداخلي حتى اصبت بصعقة، وكأني امسكت بسلك كهربائي للضغط العالي، احسست بان كل ذرة في جسدي تنهار مثل انهيار الاحجار الطينية عندما تصدم بها امواج سيول جارفة. كانت شيرين ممددة على الارض قرب السلم، والدم يلطخ ثيابها، والمكان الذي حولها، وكأنه يحكي وقائع مجزرة من مجازر المغول. رميت ما في يدي، وهرعت اليها، وانا اصرخ. لم اعرف ماذا اصنع، اندفعت راكضا نحو الباب الخارجي للبيت. كانت ثمة سيارة قادمة فوقفت في منتصف الشارع لإيقافه. لم يكن امام السائق خيارا سوى الوقوف، فاندفعت باتجاهه راجيا اياه ان يساعدني في نقل زوجتي المحتضرة الى المستشفى، هرعت الى البيت مسرعا لأحمل شيرين المضرجة بالدماء بين يدي، ونقلتها الى داخل السيارة فانطلقت بنا مسرعة، وانا احث السائق متوسلا على زيادة السرعة. والرجل يحاول تهدئتي مذكرا برحمة الله. كان كل شيء امام عيني قاتما، حتى خيل الي اني غير قادر على رؤية تلك الرحمة الالاهية، رغم اني كنت اقرب ما اكون من الله. كان كل شيء فيّ يتوسل بأصدق التوسلات، ويتضرع بكل ما في التضرع من خشوع، وتذلل الى

الله ان ينجيها، ويعيدها اليّ. لم اكن افكر في اي شيء سوى بها. خذ الولد.. خذ كل شيء.. خذني انا.. ولكن ليس شيرين. كان الطريق يخيل الي، وكأنه الطريق الى زحل، او المريخ. كنت اتخيل، وكأن امامي ملايين السنين الضوئية لأصل الى المستشفى. يا الله ما ابعد ذلك الطريق. بل كنت اتخيل ان الله جالس في المستشفى، وهو الذي سيتولى معالجة شيرين، وانقاذها بل انقاذنا معا من هذه المحنة.

وقفت السيارة في باب المستشفى فهرعت راكضا الى ردهة الطوارئ طالبا النجدة. اخرج الممرضون شيرين ووضعوها على النقالة. و ساروا بها مسرعين الى غرفة العمليات، وكنت اسير الى جانبهم منهك القوى. لم يعد امامي شيئا اصنعه سوى انتظار يد الله التي ستمتد لإنقاذ حبيبتي. اتصلت باهل شيرين، واخبرتهم بما حدث. كانت الدقائق بل الثواني تمر علي، وكأن كل ثانية تجتاز طريق حياتي تلقي علي بأكداس من الاحجار، وانا ائن تحت وقع ثقلها،... أه ترى كم اصبح فوقي من الأحجار ربما اكثر من جبال افرست، ولكنها ستزول بابتسامة، ولو خفيفة من شفتي شيرين. وصل والد شيرين، واخوها، وزوجة اخيها. لم تكن اجاباتي لسيل اسئلتهم بكامل وعيي، بل كنت اجيبهم، وانا غائب عن الوعي لا اعرف ماذا اجبتهم، وماذا كانت اسئلتهم.

كان كل شيء فيّ يدور حول شيرين، وهي نائمة بين يدي الله. كلّ شيء فيّ مقطوع الصلة بالعالم الذي حولي الا بما يتعلق بشيرين. أليست هي قطب حياتي؟

11- خروج آدم من الـجنـة

مرت الدقائق وكأنـها سرف دبابات تسير فوق رأسي، وأحيانا كأنـها حبل يمسك طرفه القدر وطرفه الآخر مربوط برقبتي وأنا اتدلى به جيئة وذهابا مثل بندول الساعة، ولكنـه ما لبث ان رمى بي بقوة الاعصار ليرتطم راسي وجسدي بجدار صخري او اسقطني في فوهة بركان هائج. هكذا كان وقع الخبر علي. عندما اخبرني الاطباء معزين: البقاء في حياتك. اي بقاء هذا واي حياة هذه التي تدعون لها بالبقاء. وهل بعد شيرين ثمة حياة؟ كانت صرختي التي دوت في ارجاء المستشفى مثل انفجار ذري دوى في مكان ليعم بعده سكون رهيب.

بعد ثلاثة ايام افقت وانا ممدد على سرير في المستشفى فهرع الاطباء الي مستفسرين عن حالتي، و قام احدهم بزرقي بحقنة مهدئ. كنت احس ان لا شيء في متزنا، ولكني كنت هادئا ووديعا مثل قط اليف. في اليوم التالي اخرجوني من المستشفى فاصطحبني اخو شيرين الى بيتهم. كانوا قد اتموا مراسيم الدفن والعزاء فطلبت منهم ان يدلوني على قبرها.

رميت بجسدي فوق القبر منهك القوى، مشتت الفكر، والدموع لا تكف عن الجريان، تركوني ساعة، ثم حاولوا تهدئتي واصطحابي معهم، فرفضت ذلك، واخبرتهم بإصرار مجنون انني سأقيم هنا، ولا شيء يبعدني عن شيرين ولا مكان لي الا قربها. وبعد ان يأسوا مني تركوني في المكان وغادروا. بقيت مقيما في تلك المقبرة، وانا بحالة جنون تام. كل شيء فيّ كان

يوحي للناظرين بذلك: وجهي المترب، ولحيتي الكثة، وملابسي المتسخة.

كان مرتادي المقبرة يضعون قربي الماء والطعام، عطفا واحسانا، فكنت اتقوت ببعض ذلك عندما يشتد وقع الجوع والعطش علي، لم يكن ضوء النهار او ظلمة الليل تعني لي اي شيءٍ، فربما بقيت الليل كله مستيقظا لأنام قليلا في النهار او ابقى مستيقظا النهار كله وجزء من الليل. وربما بقيت يومين، او اكثر دون ان اذوق طعم النوم، وحتى نومي لم يكن يخلو من طيف شيرين وهي تمد كفيها؛ لتمسح عن وجهي ما تراكم فوقه من تراب تتسرب الدموع من تحته، ومن فوقه، كان خيال شرين لا يبارحني نائما كنت، او مستيقظا. استمر تواجدي في المقبرة بضعة اشهر، ولكن السلطات ابعدتني قسرا عن المكان، ربما وجودي هناك كان يسبب شيئا من الخوف لرواد المقبرة. فمن ذا الذي يطمأن لمجنون، حتى لو كان وديعا.

لم يكن لدي الجرأة، او القوة ان اعود الى بيتي الذي خلا من شيرين، فرحت اتنقل بين خربة واخرى، ومدينة واخرى، ربما كانت بعض الخربات مواقع اثرية، او مقامات لأولياء، لم يكن يهمني شيئا من ذلك. كل ما كان يهمني هو مأوى اقيم فيه لبضعة أيام، او بضعة ساعات، وانا احمل خيال شيرين الذي يتنقل معي من مكان الى اخر. قد يقول قائل لماذا لا تجلس في بيتك بصحبة خيال شيرين ما دمت تحمله معك؟

الحقيقة اني كنت ارى ان خيالها لا يمكن ان يعود الى المكان الذي هجره جسدها، ولذلك لم افكر بالعودة لتلك الدار خوفا من ان افقد ذلك الخيال الذي بات انيسي الوحيد في هذه الدنيا.

12- فـي حضرة الـبسطامـي

في مكان قصي لا اعرف اسمه، ولا اعرف اين يقع. لاحت لي قبة خضراء بدا انها غير مرممة، ولا اثر كبير للعناية بها كما هو شأن قبب الاولياء التي كنت ارها في المدن الايرانية. توجهت نحوها بحقيبة القماش التي احملها معي في حلي، وترحالي، والتي اضع فيها بعض الطعام والشراب، وسجل، وقلم كانا يرافقاني اينما حللت.

وصلت الى المكان متعبا. كان يحيط بالقبة التي تقع في المنتصف سور من الطابوق القديم، يحوي من الداخل ايوانات صغيرة، بنيت سقوفها على شكل اقواس، وكان الضريح هذا يقع في منطقة معزولة على سفح جبل، ولا اثر لبيوت بالقرب منه. كانت اشجار الفاكهة، والزهور تحيط بالمكان، وكان ثمة عين ماء جارية بالقرب من السور الخارجي للضريح، وعين اخرى تتدفق منها المياه في داخل السور دون ان يكون لها مجرى تخرج من خلاله. كان المكان ساحرا بأجوائه المحيطة به، حتى ذلك الهدوء الذي يخيم عليه فهو اشبه بهدوء متصوف في حالة تجلي.

اغراني ذلك الهدوء، وتلك المياه الصافية بالاغتسال، ولم يكن جسدي قد لامس الماء منذ أن رحلت شيرين، فخلعت ملابسي التي كانت تلتصق على جسدي من فرط ما به، وما بها من اوساخ، حتى ان اجزاء منها تمزقت. غسلت ملابسي، ونشرتها فوق الصخور القريبة من المكان، ثم صببت الماء على

جسدي، فأحسست ببرودة الماء، وهو يزيح عن جسدي ما علق به من اتربة، وعرق، واوساخ و كأنه مطليٌّ بزيت اسود.

في احد الايوانات توسدت حقيبتي، ونمت عاريا. فلم يكن في المكان ثمة ما يوحي بوجود اناس؛ لأتحرز او أستر عورتي احتشاما منهم.

يبدوا ان برودة الماء، وتعب المسير الطويل القيا على جسدي شيئا من الراحة، والانتعاش، فنمت نوما هادئا، وطويلا، ولم استيقظ الا على صوت خفيض، ويد راحت تحركني بلطف، ففتحت عيني؛ لأجد رجلا ذا لحية بيضاء منسدلة بشكل انيق، وعمامة صغيرة تتحدر من تحتها ذؤابتان بيضاوان، وقد وقف بالقرب مني، ودثرني بعباءته البيضاء، وقد علت وجهه ابتسامة وقورة.

قال الرجل: اهلا بك.. يبدو انك متعب؟

قلت: نعم يا شيخنا .. واعتذر عن وضعي .. فليس في المكان ما يدل على وجود احد.

قال: لا باس عليك.. ولكن عليك ان ترتدي ملابسك فهناك بعض القادمين.

اسرعت نحو ملابسي ساترا جسدي بعباءة الشيخ، فوجدتها قد جفت، فارتديتها، واعدت العباءة له، مع عبارات الشكر.

قال الشيخ: لعلك جائع ،وقبل ان ارد امسك بيدي قائلا: تعال معي لنأكل بعض الطعام. وكانت الشمس قد قاربت للغروب. فسرت معه دون ان اتكلف الرد .

فتوجه الى احد الايوانات، وكان فيه ثمة باب خشبي مقفل، فتح الشيخ قفل الباب، فانفتح على سلم حجري، نزل الشيخ، ونزلت خلفه، وصلنا الى باحة مظلمة، فقام الشيخ بايقاد فانوس كان معلقا في الجدار، فلمحت بابا خشبيا آخر، وعندما فتح الشيخ الباب، اوقد فانوسا اخر معلقا في الجدار قرب الباب، لإذا بنا نقف في غرفة واسعة مرتبة، تنتصب في احد جوانبها مكتبة، تستقر على رفوفها كتب بدت لي من اغلفتها انها قديمة. طلب الشيخ مني الجلوس على قطعة من السجاد تتوهج الوان خيوطها وكأنها قد نسجت اليوم. جلست حيث طلب مني، ودلف هو الى غرفة اخرى، وما لبث ان عاد حاملا اناء كبيرا فيه طبقين، وبعض اقراص الخبز، واناء فيه فاكهة، وبعض الخضار، فأكلنا سوية حتى شبعنا.

سالت الشيخ ونحن نتناول الطعام عن الكتب التي تنتظم على رفوف المكتبة، فاخبرني انها كتب قديمة، بعضها مطبوع، وبعضها مخطوط لبعض المشايخ، والعلماء من اصحاب

(الطريقة).

وسألته عن الضريح، فاخبرني ان الوثائق التي لديهم تشير الى انه ضريح الشيخ ابا يزيد البسطامي.

فقلت يا شيخنا: الذي اعرفه ان ضريح ابا يزيد البسطامي يقع في بسطام.

قال: هم يزعمون ذلك، ونحن نزعم حسب، وثائقنا ان ضريحه الحقيقي هو هذا.

خرجنا من ذلك السرداب، وقد حل، وقت الصلاة، فرأيت بعض الرجال يناهز عددهم العشرين رجلا، قد افترشوا جانبا من الصحن المحيط بالضريح. وما ان رأوا الشيخ حتى نهضوا للسلام عليه بتبجيل، وتوقير.

وقفنا في صفين وراء الشيخ؛ لأداء الصلاة، وما ان انهينا الصلاة حتى اتخذ المصلون شكل دائرة حول الشيخ، فوقفت معهم، دون ان اعرف ماذا سيفعلون.

اخرج ثلاثة من الجالسين دفوفا كانت في اكياس قماش بقربهم، وبدأوا بالنقر عليها ثم علا صوت الشيخ، وهو يردد ابياتا من الشعر كنت قرأتها قبل ذلك للشيخ ابي يزيد البسطامي، واخذت اجساد الحاضرين، ورؤوسهم تميل يمينا، ويسارا في نسق منتظم دون ان يخل احدهم بذلك النسق، فرحت افعل كما يفعلون دون وعي، او ارادة. تناوب على الانشاد مع الشيخ اثنان اخران، وبعد ان ازداد الحماس لدى الجميع، وقفوا، واخذت حركت تمايلهم تزداد مع حركة دوران منتظم، والشيخ يدور في منتصف الدائرة، وكأنه ابن عشرين عاما. وقد استمرت طقوسنا هذه اكثر من ثلاث ساعات ونحن نجلس مرة وننهض مرت اخرى في ذات النسق. احسست بشيء من الراحة النفسية، غطت على ذلك التعب الجسدي. وبعد ان انتهى كل شيء جلسنا ساكنين مدة نصف ساعة، والصمت يخيم على المكان، وعيون الحاضرين شاخصة الى الاعلى، وكأنهم ينتظرون قادما من السماء، لم اكن املك الا ان انقاد لأفعالهم، واتصرف مثلما يتصرفون، واشخص ببصري الى السماء، دون ان تثنيني الافكار التي تعتلج في نفسي عن مغزى شخوص ابصارهم الى السماء، وربما ما شعرت به من

راحة في حركات الرقص تلك. هو ما فرض علي الاستسلام، والانقياد لهم.

انتهت فترة الصمت، بعد ان همهم الشيخ ببضع كلمات لم افهم منها شيئا. ثم قال بصوت مسموع للجميع: ايها الاخوة رحبوا بضيفنا.

فرحبوا بي، ولمحت في اعينهم رغبة بمعرفة من اكون؟ فعرفتهم باسمي قائلا: يناديني الناس بمولانا جلال الدين التبريزي. وقد كنت اسكن مدينة تبريز. اما الآن فانا اجوب الافاق حاملا معي خيال من سرقته مني يد القدر بحثا عن المكان الذي يأوينا معا في الرحلة الابدية.

ساد جو من الحزن على المكان لحظة. ثم ما لبث ان بدده الشيخ بقوله: تشرفنا بقدومك الينا لعلك تكون بيننا مثلما كان سميك القطب الاعظم مولانا جلال الدين الرومي. فتبسمت قائلا: وانى لي ذلك يا شيخنا. فقال بالله عليك تعرف عنه شيئا؟

قلت: ليس اكثر مما تعرفون كما اظن.

قالوا: فاحكي لنا لنأنس بحديثك.

قلت: بل امسكوا الدف ودعوني انشد.

بدأ النقر على الدفوف، وتوسطت المجلس، وفي شبه حالة السكر بدأت انشد احدى قصائد جلال الدين الرومي:

أنصت إلى الناي يحكي حكايته..

ومن ألم الفراق يبث شكايته

فمذ قطعت من الغاب، والرجال والنساء لأنيني يبكون

أريد صدرا ممزَقا برَّحه الفراق

لأبوح له بألم الاشتياق..

فكل من قطع عن أصله

دائماً يحن إلى زمان وصله..

وهكذا غدوت مطرباً في المحافل

أشدو للسعداء، وأنوح للبائسين

وكلٌ يظن أنني له رفيق

ولكن أياً منهم لم يدرك حقيقة ما أنا فيه!!

لم يكن سري بعيداً عن نواحي، ولكن

أين هي الأذن الواعية، والعين المبصرة؟!!

فالجسم مشتبك بالروح، والروح متغلغلة في الجسم..

ولكن أنى لإنسان أن يبصر تلك الروح؟

كنت ارددها وانا اتمايل يمينا ويسارا من دون وعي او ادراك. كنت كأنني اسبح في فضاء من النور ليس للأجساد فيه موضع، ولا للأقدام فيه موطئ، طائرا من غير جناح، مبصرا ما يحيط لا بعين، وانّى لهذه العين ان تبصر تلك الاجواء والعوالم؟ كانت شيرين تحلق، وتدور معي وسط ذلك الفضاء، محاطة بهالة من اضواء قوس قزح. حينا تقترب مني حتي يخيل الي انها ستعانقني، فافتح ذراعي، وحينا تبعدها تلك الاضواء الملونة حتى اكاد لا اراها، فاهيم باحثا عنها في

ارجاء ذلك الفضاء المترع بالأضواء الساطعة، حتى اذا تسلل الياس الى نفسي اقبلت بألوانها المبهرة من الافق البعيد، فينتفض الامل في نفسي مرة اخرى.

افقت من رحلتي النورية تلك، وانا ممدد على فراش في احد الايوانات. والشمس تبعث بأول اشعتها، نافضة عن المكان غبار الظلمة. وموقظة اسراب الطيور التي راحت تحلق بكل ما فيها من نشاط ومرح، وهي تعزف سمفونية الحياة بأصواتها المتنوعة.

نضحت على وجهي بعض الماء من العين التي وسط الصحن، وارتشفت قليلا منه لابل به ريقي المتيبس من عناء رحلتي. بحثت في ارجاء المكان، فلم اعثر على احد ممن كان معي الليلة البارحة.

ذهبت الى باب السرداب المقفل، وطرقت عليه بضع طرقات دون أن اسمع جوابا.

كنت اشعر بالجوع، ولم يكن قد تبقى معي في الحقيبة شيء من الطعام، فاتجهت الى شجرة تفاح كانت قريبة من السور الخارجي للصحن، وقطعت حبتين، وكان ثمة شجرة عنب في وسط الصحن قطفت منها عنقودا ايضا.

جلست افكر بما دار من احداث في الليلة البارحة، وبالأصحاب الذين اختفوا دون ان اعرف عنهم شيئا.

اخذت تساورني الظنون. هل كان ذلك حلما ام واقعا؟ فان لم يكن حلما. أين اختفى هؤلاء الناس؟ لم اهتدي الى شيء. فقلت في نفسي: مؤكد انه حلم. وها انا اعود وحيدا وسط هذا المكان

الذي لا اعرف اين يقع، لم تكن تهمني الصحبة ولا توحشني الوحدة، فقد اعتدت عليها منذ ان فقدت الرفيق الاهم في حياتي، غير ان غرابة ما حصل هو ما اثار في نفسي تلك التساؤلات.

حملت حقيبتي، وخرجت للتجول في المكان المحيط بالضريح، مسرحا بصري بجمال تلك الاشجار المتنوعة الثمار، وتلك الحقول من الزهور المتعددة الالوان، وما يحلق فوقها من الطيور المتنوعة الاشكال، والاجناس، وهي تتنقل من شجرة الى اخرى، ومن غصن الى اخر، وكأنها لوحة سريالية. تجعل من الناظر اليها يحس بمتعة غامرة. لقد تذكرت، وانا اتأمل ذلك المنظر بألوانه الساحرة خيال شيرين في الليلة البارحة، وهي ترقص وسط تلك الهالة المبهرة من الالوان المتعددة.

كنت انقل اقدامي بحذر، وانا اسير بين سيقان الزهور الغضة، وكلما نقلت قدمي كنت المح الفراشات تطير من زهرة الى أخرى. كان منظرها خلابا، وهي تنشر اجنحتها الصغيرة الغضة بألوانها الزاهية فوق تلك الحقول، ورغم ذلك الا اني كنت حريصا ان لا افزعها فأخفف ما استطعت من حركتي.

قضيت النهار كاملا في تجوالي في تلك الحقول حتى اني غفوت قليلا في حضنها، فخيل الي انها كانت تنحني علي بين حين، واخر؛ لتشعرني بالطمأنينة، والحنان. لم يكن ذلك الحقل يمنحني الهدوء، والراحة فحسب، بل كان يمنحني الغذاء ايضا. مرت عدة ايام، وانا اتجول نهارا في الحقل، لأعود في المساء الى صحن ضريح البسطامي محلقا مع الاصحاب في اجواء الصفاء عبر تلك الطقوس.

كان ارتياحي لتلك الاجواء دفعني للاستقرار في هذا المكان الجميل، فقررت ان ادون بعض ذكرياتي عن حياتي الماضية في السجل الذي كان معي، والذي لا اعرف سببا لاحتفاظي به في حقيبتي في تنقلي الدائم.

لا ادري لماذا في هذا الوقت بالذات قررت ان ادون ما مر بي ، هل هو ما احس به من فراغ، ووحدة بعد ان ركنت الى الاستقرار في هذا المكان؟ ام هو سحر المكان؟ ام احسست بان ختام حياتي سيكون هنا بين هذه الزهور، او تحت ظلال شجرة من الاشجار التي تملأ المكان بأغصانها الكثيفة، وثمارها الدانية، وخضرتها الزاهية؟ او لعله لكل تلك الاسباب اثر في ذلك؟

بأية حال فان ما كتبته ربما سيدفن معي داخل هذه الحقيبة، او ان من يتولى دفني سيغريه فضوله بقراءة ما كتبته، ثم يرميه في العراء، او يحتفظ به. والامر سيان، فماذا يهم رجلا قد غطى التراب جسده، وصعدت روحه الى مكان لا تصل اليه سوى الارواح التي تحررت من قيود الجسد.

مرت الايام الاخيرة، وانا اتنعم بما حولي من جمال مناظر، و طيبة صحبة، وسحر طقوس، ولكن ما عكر صفوي هو اني لم انعم برؤية خيال شيرين منذ اسبوع.

وفي غمرة تفكيري في وسط تلك الظلمة الحالكة اخذ النعاس يداعب جفني، فغفوت مستسلما لسلطانه، ولكني استيقظت فزعا على صوت شيرين وهو يناديني بلهجة العتاب:

إيه يا جلال الدين يبدو ان جمال المكان شغلك عني، سأتركك تتنعم به.

13- المسير برفقة صديقي النهر

قفزت من مكاني، ورحت اصرخ، وابكي، واضرب بكلتا يدي على راسي، وحملت حقيبتي، وصرت اركض هائما على وجهي، اسقط حينا، وانهض حينا اخر حتى اغمي علي من شدة التعب. مرت يد شيرين على شعري، وعلى خدي، فأحسست برقتها، وحنانها، وهي تبعث الهدوء، والسكينة في جسدي ثم قربت فمها من اذني هامسة:

افق يا حبيبي ما زال في الطريق بقية.

فلما افقت، وجدت نفسي قرب نهر صغير، وقد بلغ بي العطش مبلغه، فنزلت الى النهر، واغتسلت، وشربت من مائه.

كان خيال شيرين الذي زارني اعاد لي بعض الهدوء، غير انني قررت عدم التوقف عن التجوال؛ لئلا افقد خيالها مرة اخرى.

بدأت بالسير الى جانب النهر دون ان ادرك اين وجهتي، او الى اين سيأدي بي هذا الطريق؟ وما الذي يعنيني من وجهته؟ فطالما بقي خيال شيرين معي فكل مكان هو وجهتي، و مقصدي؟ لم تعد الجهات تعني شيئا لي، ولن يثير اهتمامي مكان ما، مهما كان جميلا بعد ان هددني خيال شيرين بالقطيعة؟

اذن فسأستمر بمسيري شرقا، او غربا، شمالا، او جنوبا. ما يهم هو ان تبقى شيرين معي. لم يكن النهر عميقا وكان الماء قريبا من حافة جرفه فكنت كلما احسست بالتعب، او العطش

جلست على الجرف، وادليت برجلي في الماء، واغترفت منه قليلا راويا عطشي. انتصف النهار، ولم يكن معي اي شيء اسكت به جوعي الذي بدأ شيئا، فشيئا يطلب الاغاثة. احسست ان هناك حركة واضحة للأسماك في هذا النهر، فنزلت ناشرا قميصي بين يدي صانعا منه شبكة بمواجهة تيار الماء، وما هي الا لحظات حتى قفزت سمكة الى داخل الشبكة فاحتضنتها بكل ما فيّ من قوة لكي لا تهرب مني.

اوقدت نارا مما جمعته من اغصان متيبسة ووضعت السمكة عليها. وبعد ان نضجت التهمتها بشراهة لأسرع في اسكات ذلك المستغيث المجنون.

ثم واصلت مسيري مع النهر الذي وجدت فيه رفيقا مؤنسا، ومفيدا في ذات الوقت. غربت الشمس، فعدت الى صديقي النهر ليتلطف علي بوجبة العشاء، وما ان انهيت عشائي حتى القيت بجسدي المنهك على جرف ذلك النهر متوسدا حقيبتي، كانت السماء صافية، والنجوم تتلألأ فيها كأنها مصابيح ملونة، او كأنها طوق من احجار كريمة لماعة تلتف حول وجه ذلك القمر الفضي المتلألئ. استسلمت للنوم. وما هي الا لحظات حتى رأيتني، وانا جلس على النهر راميا ببصري في حقول الزهور الممتدة الى اقصى مدى الرؤية وثمة فتاة قادمة من الافق البعيد، وهي تقفز مثل الفراشة بين تلك الزهور. وكانت كلما تدنو تتبين لي ملامح وجهها اكثر فأكثر. قفزت من مكاني كمن شعر بحرارة الجمر تحته، فاردا ذراعي، صارخا بصوت مصحوب بسيل من الدموع: حبيبتي ..حبيبتي.. رمت بجسدها بين ذراعي فاحتضنتها، ورحت ادور بها كما يدور الدرويش في حلقة الذكر. دون ان تلامس اقدامنا الارض. كان الفضاء باتساع افاقه مساحة لرقصتنا. وكنت ابصر النجوم وهي تدور

معنا بأضوائها الملونة، وبين فينة واخرى اطبق شفتي على شفتي شيرين، فاحس برعشة جسدها التي تسري مثل سريان التيار الكهربائي الى جسدي.

كان ثمة صوت يصدح بالغناء مصحوبا بنقرات على الدفوف يرافق رقصتنا دون ان اعرف مصدره:
سلوكُ نبيٍّ ومظهرُهُ،

أرومتنا الباطنية،

هذه الخصال لامرأة لم تزلْ تحيا بنا،

رغم أنها تختبئ مما نصيرُ اليه.

توقفنا عن الرقص في الفضاء، ووقفت امامي لتخلع اخر قطعة من ثيابها وفعلت مثلها. رمينا بجسدينا في ذلك النهر فتلاصق جسدانا حتى ان الماء لم يستطع ان يجد له منفذا فيما بيننا، واصلنا رقصنا الدائري في الماء، فكانت ترتسم حولنا دوائر من امواج متناسقة كلما تهشمت احداها وهي تضرب الجرف او تضيع في مجرى الماء حتى تتشكل اخرى.

لسعتني اشعة الشمس التي بدأت تعلو في الافق، فاستفقت، لأجد نفسي وحيدا في العراء مطبقا ذراعي على الفراغ، ولكن نشوة السعادة ما زالت تغمر قلبي، وما زالت خلايا جسدي ممتلئة بمتعة ذلك اللقاء السحري.

نزلت الى النهر فاغتسلت وغسلت ملابسي مما علق بها من آثار الحلم الجميل. لم يبخل صديقي النهر علي بوجبة الافطار، تناولت طعامي، وواصلت مسيري، وانا اشعر بالسعادة،

والنشاط كما لم اشعر من قبل منذ ان انتقلت شيرين الى العالم الآخر، فهي طيلة تلك الفترة لم تقم بزيارتي مثلما زارتني الليلة البارحة.

لقد احببت هذا النهر حتى صرت اتمنى ان لا ينتهي، لقد اصبح لي صديقا لا تمل صحبته، صديقا كريما يشبعني ان جعت، ويرويني ان عطشت، وينعش جسدي ان احسست بالتعب، ويغمرني بالبرودة ان شعرت بالحر، والاهم من ذلك كله، انه مصدر جذب لخيال شرين، ومكانا رائعا لرقصتنا السرية.

لقد اصبحت ابطأ في سيري؛ لئلا افقد صحبته، واخشى ان اتخذت من جانبه مأوى، ومستقرا لي ان افقد خيال شيرين، فكنت فريسة لمتنازعين، استمرت زيارات شيرين الليلية لي طالما كنت مرافقا لهذا النهر، واستمرت رقصاتنا العارية بين امواجه الهادئة.

وانا اسير رفقة صديقي النهر لا حت لي من بعيد معالم مدينة كبيرة، فشعرت بانقباض كمن يتوقع فراقا لصديق عزيز، ولكنه فراق لابد منه، فراق لا قدرة لي على منع وقوعه، انها نهاية درب، ومحطة وصول.

كانت اخر ليلة لي برفقة ذلك النهر مشحونة بالحزن والقلق حتى خيل الي ان النهر كان يبكي للحظة الفراق تلك. شعرت ان امواجه وهي تحتضننا في اخر ليلة لنا معه تداري بكاءها، وحزنها، لئلا تفسد علينا متعة اللقاء.

14- فـي مـديـنـة قُـم

ظهيرة ذلك اليوم كنت اتلفت، وانا افارق النهر الذي اخذت مياهه تصب في مجرى نهر كبير، وكأنني اسمع صراخ امواجه، وهي تنده علي مودعة، فألوح بيد اليها، وامسح بأخرى ما تساقط من دموع رسمت مجرى لها بوجنتي؛ لتبلل لحيتي.

دخلت المدينة، ولم اكن اعرف اسمها، وماذا يهمني من اسمها، وهي مجرد معلما من المعالم التي اصادفها في مسيرتي المستمرة، ولكني ومن خلال لوحة اعلانية عرفت انها مدينة قم. وماذا يهمني في مدينة قم، او غيرها، فلا فرق عندي في اي مكان اجلس، او في اي مكان انام. كانت كل الاماكن عندي صالحة لذلك.

عندما شعرت بالجوع طرقت احد الابواب طالبا الطعام، فأعطوني ما اشبعت به بطني، لم يكن يعنيني شكل الطعام، او رائحته، او نوعه. كان الطعام مجرد وسيلة لإسكات صراخ المعدة المزعج.

قطعت في مسيري بعض الشوارع حتى وصلت في المساء الى منتصفها، طرقت بابا اخر فأعطوني بعض الطعام، تناولت طعامي في حديقة كانت امامي، وتوسدت حقيبتي، ونمت. جلست شيرين الى جانبي في تلك الحديقة، ولم تكن بذلك المرح الذي كانت عليه، وضعت كفي بين كفيها مطيلة النظر في وجهي دون ان تتفوه بكلمة، كان وجهها عليه مسحة من الحزن لم اعرف سببا لها، حاولت ان اقبلها، فتمنعت، لم اكن

اعرف سبب تمنعها، فاكتفيت بالاستغراق في النظر الى وجهها الملائكي، حدثتها كثيرا عن شوقي لها، فكانت تصغي، وعلى وجهها تلوح ابتسامة حزينة، حاولت ان أسألها عن سبب حزنها، فأخبرتني ان طفلها يبكي، سألتها اي طفل هذا الذي تتحدثين عنه؟ قالت: طفلنا يا جلال.

افزعتني يد رجل وهو يهز جسدي بعنف: استيقظ يا هذا ..لماذا تنام هنا؟ نظرت بوجهه العابس، فأحسست ببغض وغضب تجاهه. تركته دون ان اتفوه بكلمة، وان كنت احس ان في داخلي سيل من الكلمات النابية كان من الممكن ان اصبها عليه، ولكني كتمتها اجلالا لذلك الزائر الليلي الذي اثار في نفسي اسئلة لم اجد لها جوابا. جلست على مسطبة وسط الحديقة، ودونت ما مررت به يوم امس كما هي عادتي، وانا في حيرة من امري ماذا افعل واين سأذهب؟ وبعد لحظات تردد قررت ان اواصل مسيري لعلي احظى بتفسير للقاء الليلة البارحة في ليلة اخرى.

15- الـعـودة الــى تــبـريــز

بعد ان اتممت قراءة المذكرات، راودني هاجس بان تلك المذكرات ربما تعود لي، غير انني سرعان ما حاولت التخلص من هذا الهاجس المقلق، واكثر ما كان يقلقني هو حيرتي في كيفية أخبار زوجتي، واولادي بأنني قد تزوجت، وربما يكون لي طفل من تلك الزوجة. ترى ماذا سيكون موقفها، وموقفهم من هذا الخبر، وهم الذين تحملوا ما تحملوه في فترة غيابي الطويل، ترى كيف سيكون وقع الخبر على زوجتي؟ هل يحق لي ان اسبب لها صدمة بهكذا خبر؟ كيف ستكون ردة فعلها؟ و لو افترضنا انها ستقتنع بمبررات الخبر على انني كنت فاقدا للذاكرة ،فهل ستسمح لها الغيرة المتأصلة في نفوس النساء بتقبله؟ اذن ما العمل؟ هل اترك هواجسي التي قاربت اليقين بان هذه المذكرات هي لحياتي السابقة خاصة بعد مقارنتها بفترة غيابي وضياعي في ايران؟

ما ذنب ذلك الطفل الذي فقد والدته؟ ولا ادري هل هو موجود فعلا، ام لا؟

ولكن العدل، والاخلاق يحتمان علي معرفة مصيره كما اعتقد.

خطر في بالي ان ابحث في الانترنيت عن جلال الدين التبريزي لعلي اجد صورة له، فوجدت بعض الكتابات عن مؤلفاته واشعاره، ولم اجد اي صورة شخصية له. ولفت انتباهي خبرا مفاده: ان جلال الدين قد اصيب بالجنون بعد ان فقد زوجته. غير ان كل ما قرأته عنه لم يرشدني الى اي تعريف يقينيّ به.

وما لم استطع البوح به لزوجتي واولادي، لا ضير في البوح به لأصدقائي، والاستئناس بآرائهم. لعل فيها ما يعينني على اتخاذ القرار الصائب.

كان اول رأي اسمعه منهم بعد ان اخبرتهم بما وجدته في ذلك السجل من مذكرات هو رأي صديقي المتهكم بقوله: هل تريد ان تغيب عنا في (قونية) اخرى. ساد اجواء المزاح، والضحك، والتعليقات الساخرة من هنا وهناك، وكل واحد اخذ يجتهد في ابتداع عبارة ساخرة حولت الجلسة الى جلسة مفعمة بالمرح. وبعد ان هدأ الجميع. اخبرتهم بجدية ما اطرحه، وما انتظره من آراء منهم. فكانت آراؤهم متناقضة بين من حثني على اخبار زوجتي، واولادي، وتقبل ما يحدث بعد ذلك، وبين من رأى ان اترك الامر، وان لا افكر فيه، واصطنع لنفسي مشاكل انا في غنى عنها اساسها الوهم. غير ان ما اعجبني، وكان اكثر الآراء نضجا حسب قناعتي، هو أن اسافر الى تبريز، والتقي بمن ذكرت اسماؤهم دون ان اخبر احدا بشيء؛ لأتأكد إن كنت انا صاحب المذكرات، ام شخص آخر.

لقد خيل الي ان البحث في تبريز عن جلال الدين مثل البحث عن ابرة في الظلام، فقد كانت تبريز بالنسبة لي مكانا مظلما لا اعرف اين اذهب فيه.

ولكن فضولي في معرفة حياتي السابقة، ومصير الطفل زادا من عزيمتي على المضي في رحلة بحثي.

لقد عادت صورة ذلك الشخص ذي الوجه الابيض المشرب بالحمرة تطرق على رأسي من جديد، ولكن هذه المرة في يقظتي وليس في المنام.

اصبحت اراه كلما جلست بمفردي يحدق فيّ. مرة بشكله القديم، ومرة اخرى بشكل امرأة ذات بشرة بيضاء مشربة بالحمرة.

لقد اصبحت مذكرات جلال الدين تعيش في مخيلتي بكل تفاصيلها. باعثة في داخلي تساؤلات، واستنتاجات مختلفة. هل كانت تلك المرأة بمثابة شمس الدين التبريزي لجلال الدين. الم يقل في رباعياته.
(سلوكُ نبيٍّ ومظهرُهُ،

أرومتنا الباطنية،

هذه الخصال لامرأة لم تزلْ تحيا بنا،

رغم أنها تختبئ مما نصيرُ اليه.)

هل تجسد شمس الدين في هيئة هذه المرأة؟ ولم لا؟ اليس هناك اناس يؤمنون بنظرية الحلول!؟ فلم لا تكون هذه الحالة مصداقا لها؟

اخبرت اولادي، وزوجتي بقرار سفري الى ايران، فابدو استغرابهم من قراري خاصة بعد ما حدث لي فيها، فاقنعتهم بأنني بحاجة الى بعض الراحة، وزيارة العتبات المقدسة هناك، فعرض علي اولادي ان يسافر احدهم معي، فرفضت ذلك متعللا بان سفره معي سيكلفنا مبلغا اضافيا نحن بأمس الحاجة اليه. اكملت متطلبات السفر، ولم انس ان اطلق لحيتي لكي اشابه صورتي التي كنت عليها عندما كنت في مستشفى قم بعد الحادث.

اصبحت مكاتب السفر منتشرة في المدن، ولم يعد السفر كما كان في اول سفرتي، ذهبت الى احد تلك المكاتب، وبعد بضعة ايام اخبروني باكتمال (الفيزة) واتمام عملية الحجز على متن احدى الطائرات.

من مطار البصرة اقلعت بنا الطائرة متجهة الى مطار طهران. وصلنا المطار في الساعة الثانية ظهرا، اضطررت الى قضاء تلك الليلة في مدينة طهران مرغما، كان الوقت يمر علي ثقيلا ومملا وانا اتجول في شوارعها، واسواقها رغم جمالها الا ان تفكيري المستمر بالغاية من سفري يمنعني قسرا من الاستمتاع بكل ما حولي من متع.

في الساعة السابعة انطلقت بنا الحافلة متوجهة الى تبريز، كنت احس ان نفسي مثل ساحة معركة تتصارع فيها عدة جيوش من دون ان يتفق جيشان على عدو واحد، كل الجيوش تتقاتل في اتجاهات متعددة، ومن دون ان يكون لاحدها غلبة على الاخرين، فما ان يتفوق احدها في موقعة ما حتى ينتكس في موقعة اخرى، فمن رغبتي بان لا اكون انا جلال الدين واتخلص من تبعات ذلك، الى تساؤلاتي المحيرة عن مجريات حياتي خلال السنوات التي قضيتها في ايران في الفترة التي فقدت فيها ذاكرتي، الى خوفي من ان يكون لي طفل من تلك المرأة في حال كوني جلال الدين، الى قلقي وعطفي على ذلك الطفل الذي اصبح يتيم الابوين.

كان الهدوء يسود الحافلة وهي تلتهم الطريق باتجاه تبريز، غير ان صوتي الذي مزق السكون وانا اصرخ بلغتي العربية وكأني اريد فرض امر على المجهول الذي ينتظرني : لأكن انا جلال الدين ولكن من غير طفل.

جعل من الجميع يلتفت نحوي، والدهشة تملأ اعينهم عن سبب صراخي الذي لم يفهموا شيئا منه، فابتسمت معتذرا منهم باللغة الفارسية مبررا صرختي باني كنت نائما، وايقظني كابوس مزعج. ابتسم بعضهم، والبعض الاخر اخذ يهمهم بكلمات غير مسموعة. لا ادري ان كان يشتمني او يدعو لي.

في الساعة الثانية ظهرا وصلنا تبريز بعد ان قطعنا مسافة (630) كيلو متر. كنت مرهقا من طول الطريق، فتوجهت الى فندق(كوسترش تبريز) الذي يقع وسط المدينة، و حجزت غرفة فيه. ما بعث في نفسي شيئا من الطمأنينة باني لم اصادف احدا قام بالتعرف علي، ولكني زعزعت هذه الطمأنينة بان مدينة تبريز مدينة كبيرة، وربما كان تواجدي سابقا في مكان بعيد عن المناطق التي مررت بها اليوم.

في الساعة الخامسة عصرا خرجت من الفندق بعد ان اخذت قسطا من الراحة، فتوجهت للتجول في الشوارع، والاسواق القريبة، وكنت أسأل بعض اصحاب المحلات عن الحاج مرتضى دون ان اعثر على جواب.

حل الظلام فعدت الى الفندق مؤجلا بحثي الى اليوم التالي. جلست في شرفة غرفتي الواقعة في الطابق الرابع، مسرحا بصري في ارجاء تلك المدينة الكبيرة، متأملا في بريق الاضواء المتلألئة، وكأنها تنثر على بيوتها قطعا من الحلوى المغلفة بأغلفة براقة متعددة الألوان.

يا ترى ما الذي تخفيه لي هذه المدينة الغامضة؟ سؤال تردد في نفسي بانتظار اجابة لا اعرف كيف ستكون نتائجها، ووقعها على نفسي. ترى كيف ستكون مشاعري تجاه طفل من

دمي، ولحمي، وليس منهما؟ فهو ابن شخص لا اعرف عنه سوى ما قرأته في المذكرات، وليس بيني، وبينه اي رابطة اخرى. ثم يطفر في ذهني سؤال آخر: يا ترى هل كانت شيرين بذلك الجمال المبهر الذي وصفه جلال الدين؟.. ثم ارد ضاحكا يا لي من احمق .. وما الذي يعنيني ان كانت بذلك الجمال ام لم تكن؟ ولكن المهم كيف سأتعامل مع اهلها؟ ماذا افعل بالطفل؟ هل آخذه معي ام اتركه لهم؟ هل سيتخلون عنه لي ؟ وان رفضوا ماذا سأفعل؟ هل سأتركه لهم وأنسى انه ابني وامحو وجوده من حياتي ام اتشبث باستعادته؟ اسئلة كثيرة اخذت تراودني وأغرقتني في دوامة لم يخرجني منها الا النعاس الذي تسلل الي بعد ان اعياني طول التفكير وسيل الأسئلة.

في الصباح، وبعد ان تناولت فطوري بدأت مسيرة بحثي باتجاهات مختلفة، فمرة أسأل عن الحاج مرتضى، واخرى أسأل عن الشيخ المازندراني. الكثير ممن سألتهم كان يعرف الشيخ المازندراني. واعطوني عنوان مكتبه. ولكن ما اسعدني، واثار قلقي في نفس الوقت، اني عثرت على من دلني على مجمع الحاج مرتضى، وهذا كان اهم بالنسبة لي باعتبار انه كان اكثر اطلاعا على تفاصيل حياة جلال الدين.

دخلت المجمع، فرأيت رجلاً يجلس على مكتب بالقرب من الباب، ما أن لمحني حتى نهض من مكانه مادا ذراعيه الي وهو يصيح: مولانا جلال الدين.. اهلا بك .الحمد لله على سلامتك.. اين كنت يا رجل. كلمات ترحيبه المتلاحقة لم تترك لي مجالا للتعريف بنفسي. فاضطررت الى مبادلته التحية بابتسامة فاترة، فقد وضعتني حقيقة معرفتي باني صاحب المذكرات في زحمة من المشاعر المقلقة.

يبدو ان الحاج مرتضى احس بشيء من البرود في تفاعلي مع ترحيبه. فبادرني بسؤال عتب وهو ينظر في وجهي: ما بك مولانا هل ثمة شيء ازعجك منا!؟ يبدو انك عاتب علينا؟

فانتبهت الى تصرفي، وتداركت الامر بابتسامة عريضة وقلت: بالعكس انا سعيد بوجودي بينكم. وسعيد بحفاوة ترحيبكم. ولكن ثمة سؤال، وارجو ان لا يثير استغرابكم وارجو ان تكون صبورا معي.

قال تفضل مولانا: قلت هل انت الحاج مرتضى؟

ضحك الرجل والدهشة بادية على وجهه: مولانا جلال الدين ..ما بك .هل نسيتني؟

قلت: ارجوك ان تجيبني على سؤالي.

قال: نعم .. يا رجل اخبرني مابك؟

قلت: الحمد لله .. وشكرا لك يا حاج مرتضى على كل ما عملته معي. هل لديك الوقت لتسمعني.

قال: طبعا.. طبعا تفضل مولانا.

قلت: هل انت متأكد اني جلال الدين؟

ضحك باستغراب وقال: طبعا متأكد وهل تعتقد ان ملابسك هذه (وكنت ارتدي بدلة ورباطا) ستمنعنا من معرفتك؟

قلت: حسنا يا حاج لو تكرمت ان تسمعني جيدا.. انا رجل من العراق، وقد جئت في عام 2004 لزيارة تبريز، وقد وقع حادث

للحافلة التي كانت تقلني. ويبدو اني فقدت الذاكرة. وقد عشت بينكم طيلة السنوات الماضية بشخصية جلال الدين. وعندما فقدت زوجتي اصبت بالجنون، ورحت اسير هائما على وجهي، وفي مدينة قم صدمتني سيارة، فنقلوني الى المستشفى، وبعد ان صحوت عادت لي ذاكرتي، وعدت الى بلدي، ولكني وجدت في حقيبتي سجلا مدونا فيه حياتي التي قضيتها معكم.

كنت اسرد قصتي على الحاج مرتضى، وهو يصغي الي باندهاش، ولا يكاد يصدق ما يسمع.

قال وعلامات الدهشة تعلو وجهه: يا لها من قصة اشبه بالخيال .

قلت: يا حاج هل يمكن ان نلتقي بإمام المسجد؟

قال: كما تحب سيحين وقت صلاة الظهر قريبا. دعنا نذهب اليه الآن.

خرجنا من المجمع بعد ان حييت جميع العاملين الذين استقبلوني بحفاوة ومحبة.

قال الحاج مرتضى ونحن نخرج من باب المجمع: هل رأيت كيف استقبلك العمال؟

قلت وأنا أبتسم: نعم ، يبدو انني كنت طيبا معهم.

قال: طبعا يا مولانا.. كنت طيبا مع الجميع، والكل يكن لك المحبة والتقدير. وقد احزننا جدا ما اصابك من فقدان زوجتك.

قلت: انا ممتن جدا لكم.. لقد كنتم معي بمنتهى الطيبة والكرم. ولا اعرف كيف اشكركم على مواقفكم النبيلة.

وصلنا المسجد، فتوضأنا وقد اذن المؤذن. وبعد ان انتهينا من اداء الصلاة، وبدأ الناس بالخروج، ولم يتبق الا نحن، اقتربنا من امام المسجد الذي كان منشغلا بالتسبيح. والقينا عليه التحية. فلما رآني نهض من مكانه، والدهشة على وجهه، وعانقني بحرارة وهو يردد: مولانا جلال الدين.. اهلا ومرحبا.. واخيرا عدت لنا.. الحمد لله على سلامتك.. لقد حزنا كثيرا لما اصابك. وبعد ان انتهت كلمات الترحيب، والمواساة، جلسنا، وقد همّ بطرح بعض الاسئلة. فقاطعته قائلا: هل لك ان تصغي الي قليلا يا شيخنا؟

قال: تفضل مولانا، فنحن متشوقون ان نسمع منك، ونعرف كيف اصبحت.

فذكرت له ما وقع لي، وذكرته بأول يوم جئت فيه اليه. قال: نعم اتذكر ذلك.

قلت: يا شيخنا اريد ان اذهب الى اهل زوجتي؛ لأعرف منهم مصير ابني.

قال حسنا سأتصل بهم، وسنذهب لهم عصرا، قلت جزاكم الله خيرا.

قال الشيخ: اين تقيم الآن: قلت في فندق (كوستراش تبريز). سأنتظركم هناك. الحوا علي بان اذهب معهم للغداء، فشكرتهم متعللا باني متعب من البحث عنهم. وسأرتاح قليلا. قبل ان نتوجه الى بيت اهل زوجتي.

عندما دخلنا البيت لمحت ثمة طفل عمره لا يتجاوز السنتين يلعب في الحديقة الامامية للبيت، لم استطع ابعاد نظري عنه، تسمرت في مكاني، وانشغلت بالنظر اليه، غير مبال بكلمات الترحيب، والتهليل التي غمرتنا من افواه المستقبلين، توجهت الى الطفل الذي كان واقفا قرب شجرة ورد الجوري تاركا الجميع دون أن أعيرهم أي انتباه، وهم ينظرون والدهشة تعلو وجوههم، احتضنته، واشبعته قبلا، كان هادئا مستسلما، لم يبد أي انزعاج، او تمرد، لا ادري هل كان حقيقة أم انه خُيل لي اني كنت أستنشق منه وانا اقبله عطر (التيروز) الذي اتخذته رفيقا لي منذ طفولتي، أجبرني نداؤهم المتكرر الى ترك الطفل والالتحاق بهم. اعتذرت منهم لانشداهي بالطفل.

جلسنا في غرفة الاستقبال، وبعد ان اخبرت الحاضرين بحكايتي، كان الحزن، والحيرة تخيم على الجميع، سألتهم عن الطفل الذي في الحديقة: هل هو ابني من شيرين؟ فاخبروني ان الطفل الذي انجبته شيرين مات معها، ودفن في ذات القبر، وان هذا ابن اخيها.

لم يكن جوابهم مطمئنا، فقد كانت ملامح وجوههم تثير الريبة، فاندفع سيل من الهواجس، والشكوك في نفسي، ولكنني لم استطع اظهار تلك الشكوك الى العلن، فكتمتها وفي نفسي غصة. رغم انهم عرضوا علي حقوقي فيما تركته شيرين من ارث، فرفضت ذلك. مقدما شكري لهم.

وانا مستلق في غرفتي في الفندق تذكرت انني قرأت في المذكرات، أن اخيها ليس له القدرة على الانجاب. اخرجت المذكرات، وقرأتها مرة اخرى، فتيقنت من صحة معلومتي.

في الصباح توجهت الى المقبرة برفقة امام المسجد؛ لزيارة قبر شيرين، وقراءة الفاتحة لروحها، بعد ان عدنا من المقبرة اخبرت الشيخ بما مكتوب في المذكرات عن لسان شيرين، فلم يملك الرجل جوابا، وبقي صامتا الا من ترديد كلمة: لا حول ولا قوة الا بالله. ودعت الجميع وعدت في ذات اليوم الى طهران، ومنها الى بلدي. ولكن حشد من المشاعر والهواجس المتصارعة بقيت تنازعني نحو الطفل.

تمت